السبت 17 حزيران 2023
العدد 4941 السنة السابعة عشرة
Samedi 17 Juin 2023 no 4941 17ème année

24 صفحة
20000 ليرة

الأخبار
al-akhbar

www.al-akhbar.com

كلمات

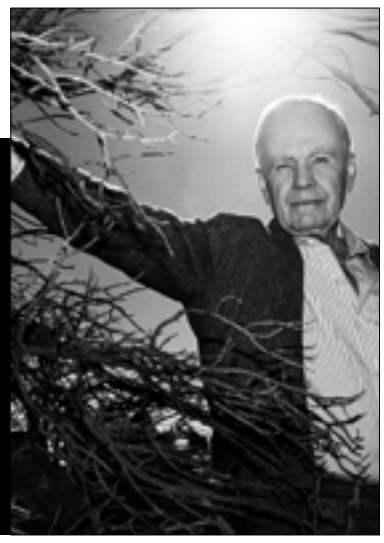

كورماك مكارثي
أميركا... سيرة للظلام

في بشري... حتى جبران «قوات»! [4]

فرنسا تدعم حلاً واقعياً لا مرشّحاً [3]

اطلب القوس مع الأخبار

الإنترنت غير الشرعي
حيتان يبلعون ديوك الأحياء
[2 ـ 3]

(هينم الموسوي)

الحدث

سوريا
عودة التسخين الميداني
8

تقرير

إيران وأميركا اللاتينية
توثيق الاتحاد ضدّ أميركا
10

البلاد

مقابلة

رباب عبد الهادي
رفات الشهداء كأرشيف لمقاومة الاستعمار

[12]

في القدس: قيامة الكتب أيضاً

[14]

على الغلاف

وزارة الاتصالات تحرم أوجيرو من حصتها في الإنترنت
45 مليون دولار تبتلعها الشركات الخاصة مع «ديوك الأحياء»

عندما صدر المرسوم رقم 9458 والذي يتضمن في مادته الـ16 تشريع الإنترنت غير الشرعي، كان يفترض ان يتم الامر باسم "أوجيرو"، أي أن يتم تحويل الشركات غير الشرعية إلى مشغّلين لديها ويدفعون لها الرسوم عن المشتركين. لكن وزارة الاتصالات تواطأت على المال العام وقرّرت أن توزّع أكثر من 560 ألف مشترك والإيرادات المرتبطة بهم على شركات القطاع الخاص

مستشارون في مكتب الوزير يعقدون صفقات مع الشركات الكبرى (هيثم الموسوي)

محمد وهبة

في كانون الأول من عام 2021 كان عدد سعات الإنترنت الدولية المستخدمة من شركات القطاع الخاص العاملة في مجال تقديم خدمات الإنترنت 253,538 ميغابايت، وكانت تصرّح عن عدد مشتركين يبلغ 142,061 مشتركاً، أما في كانون الأول 2022 فقد بات عدد السعات المستخدمة 331,070 ميغابايت وهي تصرّح عن 705,107 مشتركين، أي إن السعات المستخدمة زادت بنسبة 30% وعدد المشتركين زاد بنسبة 396%. لم تحصل هذه الزيادة بالصدفة خلال أربعة أشهر، بل عبر خطّة مدروسة نفّذتها وزارة الاتصالات بقيادة الوزير جوني القرم وثلاثة مستشارين في مكتبه، وألهدف منع أوجيرو من ضمّ المشتركين في القطاع غير الشرعي من خلال تنفيذ مزاجي للمادة 16 من المرسوم 9458 الصادر في حزيران 2022.

لم يُخلق القطاع غير الشرعي في توزيع الإنترنت حديثاً. اتّخذت عملية استجرار الإنترنت بشكل غير شرعي أكثر من شكل، لكنها بلغت مداها أيام الرئيس السابق لأوجيرو والمدير العام للاستثمار في الوزارة عبد المنعم يوسف، إذ تبيّن أنه وزّع تراخيص توزيع إنترنت بالجملة لعدد من شركات القطاع الخاص حتى فاق عدد الشركات نحو 120 شركة. انتهى الأمر بفضيحة سرقة الإنترنت التي بدأت مع توقيف توفيق حيسو، وتبيّن أن المشاركين فيها كثر، من بينهم مالكو قناة "المرتي في" التي لم تتورع أمس عن عرض تقرير في نشرتها الإخبارية، تنسب فيه تهريب الإنترنت إلى السوريين أيضاً! بعد الفضيحة، بقي السؤال هو ذاته: كيف يحصل المشتركون في الأحياء على الإنترنت؟ الإجابة كانت بسيطة للغاية خلافاً للتعقيدات التقنية التي تفسّرها. فمن المعروف أن هناك قنوات يُطلق عليها «ديوك الحي»، تحصل على سعات دولية مصدرها الأساسي «أوجيرو» إنما لا يظهر لدى هذه الأخيرة عدد المشتركين المستفيدين من خطوطها. ووفق عملية تتبع تقنية معقّدة، تبيّن لدى «أوجيرو» أن شركات توزيع الإنترنت المرخّصة كانت على مدى السنوات تزيد عدد السعات التي تحصل عليها بنسبة أقلّ بكثير من نسبة زيادة عدد المشتركين، وتبيّن أن شركات نقل الداتا السبعة المرخّصة تشارك في هذه اللعبة عبر تغطية شركات توزيع الإنترنت، أو عبر تراخيص توزيع تملكها. ففي نهاية عام 2021 قدّرت «أوجيرو» أن السعات المؤجّرة لشركات التوزيع تكفي لربط 760,614 مشتركاً بينما لم تصرّح شركات توزيع الإنترنت إلا عن 142,061 مشتركاً، أي أن هناك 618,553 مشتركاً غير مصرّح عنه والإيرادات التي تجبى منهم تذهب إلى جيوب «ديوك الأحياء» وشركات توزيع الإنترنت، وشركات نقل الداتا.

تواطؤ الجميع على سرقة المال العام الذي يفترض أن ينتج عن تأجير السعات الدولية، وتقديم خدمات الإنترنت على الأراضي اللبنانية، سببه الأرباح الهائلة التي تنتجها عملية إخفاء المشتركين، والتي كانت تقدّر في عام 2019 بنحو 32 مليون دولار على أساس أن هناك 450 ألف مشترك يحصلون على الإنترنت من خلال قنوات غير شرعية. لكن في نهاية 2022 زاد عدد هؤلاء بنسبة 37,5%، كما جرى تعديل المرسوم الذي يحدّد التعرفات والرسوم المترتبة على الشركات والمشتركين، ما زاد قيمة الإيرادات المسروقة. وقدّرها وزير الاتصالات بنحو 163 مليون دولار.

الصراع على هذه الحصّة السوقية بين شركات القطاع الخاص لم يكن بالشراسة التي نشهدها اليوم. لأن «ديوك الأحياء» شكّلوا محميات داخل مناطقهم وكانوا يدفعون الخوّات للأحزاب السياسية وقبضايات الحي ولنافذين مقرّبين من الزعماء، من أجل الاستمرار في تقديم الخدمة من دون أن يتعرّضوا لأي ضغوطات من القوى المدنية في وزارة الاتصالات ومؤسسة "أوجيرو"، أو من القوى العسكرية المرافقة لهم في عملهم. لكن الصراع اندلع حين انكشفت عملية السرقة القائمة على حصول الشركات على سعات دولية من «أوجيرو» واستعمالها بشكل غير شرعي. عملياً، كان اختلاساً للمال العام أجّر الجميع على نفض يده من بعض الشركات.

لم يطل الأمر حتى جرت ضبضبة الملف، وأطلق حيسو وآخرون رغم ثبوت تورطهم، وبقيت «أوجيرو» تحارب طواحين الهواء، حتى لاحت فرصة نهاية عام 2022 حين عقدت الحكومة آخر جلساتها قبل انتقالها إلى تصريف الأعمال. يومها كان قطاع الخلوي على شفير الانهيار بسبب الفروقات بين الإيرادات بالليرة من جهة، وكلفة الإنتاج القائمة بالدولار. والتي كانت تعادل 70% من الكلفة الإجمالية. وبنتيجة الأمر قرّر مجلس الوزراء رفع التعرفات بمعزل عما إذا كان المستهلك قادراً على تحمّلها. اقترح المدير العام لـ«أوجيرو» عماد كريدية أن يكون موضوع الإنترنت غير الشرعي بنداً ضمن المرسوم، ما يسمح بجباية إيرادات إضافية كانت مسروقة طوال سنوات. وهكذا أدرجت المادة 16 ضمن المرسوم 9458 التي تنصّ على الآتي: «تضبط شبكات التوزيع والربط المخالفة و/أو المنشأة من دون تراخيص، والمستعملة لنقل وتوزيع خدمات الإنترنت ونقل المعلومات، وتوضع بتصرف وزارة الاتصالات لإدارتها لحين اتخاذ القرار المناسب من قبل القضاء المختص»، كما ورد أيضاً أنه في مقابل ضبط الشبكات واستيفاء الرسوم بكاملها لحساب الوزارة، تسدّد الوزارة رسوم صيانة بمعدل 25% للمشغلين. وإذا كان هؤلاء لديهم تراخيص من وزارة الاتصالات، فيمكنهم التقدّم بطلب ترخيص هذه الشبكات المضبوطة.

ما حصل هو أن الترتيبات بين الوزارة و"أوجيرو" التي أفضت إلى صدور المرسوم الوزارة من أجل تحصيل الإيرادات الفائتة على الخزينة، انتهت بأن لجأ مستشارو الوزير الثلاثة (جـ د) و(إ ج) و(فـ ض) إلى استخدام المرسوم من أجل تمكين الشركات الكبرى التي تعمل في نقل الخدمات من استيعاب الشركات غير الشرعية ومشتركيهم.

وتقول المعلومات أنه جرى الاتصال بالشركات وتوجيهها للتصريح مع الشركات المرخصة، وهذا ما أدّى إلى زيادة عدد المشتركين المصرّح عنهم لوزارة الاتصالات من 142 ألف مشترك إلى 705 آلاف مشترك خلال أربعة أشهر فقط. وتقدر الإيرادات الممنوعة عن الدولة، وفق مرسوم التعرفات الأخير بنحو 3 ملايين دولار سنوياً، أما في مشروع المرسوم المقترح اليوم فهي تبلغ 21 مليون دولار بمعدل 3,5 ملايين ليرة عن كل مشترك سنوياً. عملياً، يظهر الفرق بين قيمة رسوم المشتركين وبين قيمة الإيرادات الناتجة من بيعهم خدمة الإنترنت بأكثر من 45 مليون دولار، وهي تذهب لتُوزع مناصفة بين "ديوك الحي" وشركات القطاع الخاص، أو بنسبة 60% للشركات و40% للموزّع. علماً أنه كان يفترض أن تصبّ النسبة الأكبر منها في خزينة «أوجيرو». بمعنى آخر، أُهديت هذه الحصّة السوقية للشركات بتواطؤ بين نافذ في وزارة الاتصالات وبين الشركات، وعلى حساب المال العام.

رأي ديوان المحاسبة حول المقاصّة

رفض ديوان المحاسبة في رأي استشاري صادر عنه في آذار الماضي، اقتراح وزير الاتصالات جوني القرم بإجراء مقاصّة مباشرة مع الشركات دون المرور بوزارة المالية. وتالياً، رفض الديوان أن تقبض «أوجيرو» الأموال مباشرة من الشركات عن كل مشترك في الشبكة غير الشرعية (المضبوطة)، ومن ثم تدفع للشركات مقابل صيانة الشبكة، دون مرور الأموال بحسابات الدولة في وزارة المالية، وخضوعها للرقابة. ما أيّده الديوان، هو مبدأ إجراء عقد نموذجي، يضبط الشبكة غير الشرعية، ويُدخل إيراداتها إلى خزينة الدولة، لكن بشرط التنفيذ وفق الأصول القانونية، للتمكّن من مراقبة ما يدخل ويخرج من أموال. ولا يزال يراهن القرم على أن يعدّل الديوان في رأيه ويمنحه موافقته الملزمة للتمكّن من توقيع العقود.

من جانبها اعتبرت هيئة الاستشارات والتشريع، في استشارةٍ طلبها منها الوزير، أنّ «الشبكة غير الشرعية، هي ملكيةٌ خاصة، لمن أنشأها، وتبقى كذلك إلى حين صدور قرار قضائي قابل للتنفيذ، أو قانون يبتّ في نزع تلك الملكية».

تشريع قنوات السرقة

لاحظ العاملون في قسم الصيانة في "أوجيرو" مفارقة غريبة، إذ بينما كانوا يعملون على ضبط الشبكات، ولا سيّما أحد الكابلات الواصلة بين بيروت وصيدا، تبيّن أن التوقف المؤقت لم ينعكس توقفاً للخدمة التي كانت تقدّمها الشركات الخاصة بشكل غير شرعي، بل استمرّت بعد قطع الكابل بسبب وجود تقنية ربط أخرى بين الشركات والسنترالات. بمعنى أن شركات نقل الداتا تربط السنترالات بعضها مع بعض خلافاً للقانون، وبإمكانها بهذه الطريقة أن تعوّض النقص في خدمة الإنترنت الذي ينتج من قطع الكابلات الممدودة هوائياً، عبر قنوات أخرى لا يمكن لـ«أوجيرو» ووزارة الاتصالات رصدها وكشفها بسهولة. ويقول المطّلعون، إن هذا الأمر كان واضحاً أثناء الإضرابات التي نفّذها موظفو أوجيرو، إذ تبيّن أن الخدمات التي يحصل عليها المشتركون لم تنقطع رغم أن السنترالات التي كانت تزوّد الشركات بخدمة الإنترنت كانت متوقفة أو شبه متوقفة عن العمل. عملياً، الشبكة غير الشرعية أصبحت شبكة رديفة، جرى تشريعها اليوم بتواطؤ الوزارة مع الشركات.

تقرير

563 ألف مشترك

في خدمة الإنترنت غير الشرعي صرّحت الشركات الخاصة عنهم خلال أربعة أشهر

130 ألف مشترك

هو عدد المشتركين الذين يقدّر أنهم يحصلون على خدمة الإنترنت غير الشرعي لكن الشركات لم تصرّح عنهم بعد

2.5 زبون

هو المعدل الذي اعتمدته أوجيرو لاستعمال كل 1 ميغابايت من السعات الدولية، لكن بعض الشركات صرّحت بأنها تحمّل عليه 1980% من طاقته القصوى

48

هو عدد الشركات التي تحمّل كل 1 جيغابايت من السعات الدولية التي تشغّلها فوق طاقته القصوى من الزبائن

280 الف زبون

هو عدد المشتركين لدى أوجيرو بشكل مباشر وعددهم بدأ يتناقص بسبب تواطؤ الوزارة مع شركات القطاع الخاص

(هيثم الموسوي)

باسيل لا يربط المحاسبة بالرئاسة

قالت مصادر مطّلعة على مناقشات قيادة التيار الوطني الحر بشأن الملف الرئاسي إن رئيس الحزب النائب جبران باسيل لا يربط انتظام العمل الحزبي بالاستحقاق نفسه، وإنه مستعد في أي لحظة لاتخاذ القرارات التنظيمية المناسبة بحق من يخالفون قرار التيار بالتصويت للمرشح جهاد أزعور. وأوضحت المصادر أن باسيل دعا، بعد انتهاء جلسة الأربعاء الماضي، كل أعضاء الكتلة إلى اجتماع في أحد صالونات مجلس النواب، وجرى البحث في طريقة التصويت خلال الجلسة، وسأل عمّا إذا كان هناك من خالف القرار.

ورغم المعلومات عن توتر بدا واضحاً في الكلام مع النائب ألان عون الذي رفض طريقة المساءلة، إلا أن باسيل سمع جواباً واضحاً ومباشراً من نائب رئيس المجلس النيابي الياس بو صعب، بأنه لم يلتزم بالقرار، وذكّر بأنه أبلغ باسيل بقراره قبل انعقاد جلسة الانتخاب.

ووفق المعلومات نفسها، فإن قيادة التيار الوطني تدرس بشكل غير رسمي الوضع، وتُرك لباسيل قرار دعوة قيادة التيار إلى اجتماع طارئ للبحث في الأمر، وسط تضارب المواقف، بين من يدعو إلى محاسبة فورية لمعاقبة من خالف القرار، ومن يرى ضرورة تأجيل الملف الداخلي للتيار إلى ما بعد انتهاء الانتخابات الرئاسية. وتحدثت المصادر عن أن باسيل يميل إلى حسم الموقف سريعاً، خصوصاً إذا كان مقتنعاً بأن هناك من خالف القرار غير بو صعب، وبالتالي فهو يفضل خسارة صوت في الانتخابات الرئاسية، إذا كان ذلك سيشكل عامل ضبط للآخرين، خصوصاً من جرى الحديث عن معارضتهم قرار ترشيح أزعور، أو أظهروا ميلاً إلى عدم الالتزام بالقرار. يشار إلى أن كتلة نواب التيار لجأت إلى آلية إجرائية تتيح ضبط عملية التصويت خلال الجلسة، بما يسمح عدم تسرب أي صوت إلى الجهة المقابلة.

(الأخبار)

تقرير

هل يمسك جعجع بورقة تعطيل النصاب؟

قالت مصادر من الفريق الداعم للمرشح جهاد أزعور إن الأخير ليس في صدد إعلان الانسحاب من المعركة الرئاسية، وإنه قد يعود إلى عمله في صندوق النقد ريثما تتضح صورة المرحلة المقبلة بعد الجولة الجديدة من الاتصالات، خصوصاً أن المصادر أن رئيس حزب القوات تعلن التزامها به، إلا أنها تبقي الأبواب مفتوحة أمام أي تغيير ربطاً بتبدل المواقف على وقع ما يجري من اتصالات خارجية.

وأضافت المصادر أن القوات اللبنانية تركّز على سبل حفظ الموقف لدى كل من تقاطع على ترشيح أزعور، وأن «أزمة الثقة» مع التيار الوطني الحر لا تعني التخلي عن التقاطع القائم، وأنه لا يمكن لأي طرف في هذا الفريق العودة إلى طرح أسماء جديدة، خصوصاً أنها جرت مناقشة لائحة مطوّلة من الأسماء قبل الاتفاق على أزعور.

الأمر الثاني الذي يهم القوات هو تأكيد أطراف «التقاطع» التزامهم بالخطوات الدستورية التي تمنع وصول مرشح الفريق الآخر إلى الرئاسة. وأوضحت المصادر أن رئيس حزب القوات سمير جعجع، يشدد على حق الفريق نفسه في تعطيل نصاب الجلسة إن حصل أي تطور يقود إلى انتخاب فرنجية. ونقلت عن جعجع أنه يملك بيده ورقة تتضمّن توقيعات العدد الكافي من النواب لتعطيل الجلسة. وهو أمر لم تؤكده مصادر القوات، ونفاه نواب من الفريق نفسه، أكدوا أن الاتفاق شفهي لا أكثر.

(الأخبار)

(أرشيف ـ مروان طحطح)

> موزعو الخدمات في الأحياء يحظون بتغطية سياسية مقابل عمولات

المشهد السياسي

فرنسا تدعم حلاً واقعياً لا مرشّحاً معيناً

رسمياً، لم يخرج عن لقاءات باريس الفرنسية - السعودية سوى عبارات مقتضبة حول لبنان، إذ ورد في البيان الفرنسي عن المحادثات التي جرت بين الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون وولي العهد السعودي محمد بن سلمان أنهما شدّدا «على ضرورة وضع حد سريع للفراغ السياسي المؤسساتي في لبنان، الأمر الذي يُعدّ العائق الرئيسي أمام حل الأزمة الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة». وفيما لم تخرج معلومات واضحة عن طبيعة النقاش حول لبنان، ذكر متصلون بالجانب الفرنسي قبل قمة أمس، أن باريس أكدت أنها تدعم مشروع حل في لبنان، وأن اسم الرئيس لم يكن هو العنوان الرئيسي. وقال هؤلاء إن باريس أبلغت البطريرك الماروني بشارة الراعي أن الحوار مع حزب الله أساسي وأنه لا يجب عزل أي مكوّن بمن في ذلك المرشح سليمان فرنجية.

وأوضح المتصلون أن باريس شرحت لسائليها أنها لا تبني سياستها على إيقاع المساجلات اللبنانية، وهي تأخذ في الاعتبار التوازنات القائمة ومسار التصويت للنواب، لكنّ موقفها «يرتبط استراتيجياً بالخيار الذي يفتح الباب أمام حلول جدية تعفي لبنان

من أسباب الأزمة التي كانت قائمة». وأن دعم باريس للتسوية التي تقول بوصول فرنجية إلى بعبدا ونواف سلّام إلى رئاسة الحكومة، «مبني على تصور للحل وليس على لعبة توزيع الأسماء بين هذا الفريق أو ذاك».

وأشارت المصادر إلى أن الفرنسيين كانوا أبلغوا جهات لبنانية أن البحث المفصّل حول لبنان، سيكون على جدول أعمال محادثات الموفد الرئاسي جان إيف لودريان والمسؤولين السعوديين المكلّفين بالملف، وأن الوجهة الفعلية لفرنسا، ولنتائج لقاء باريس، ستظهر خلال زيارة لودريان للبنان الأسبوع المقبل.

في هذه الأثناء، واصلت القوى السياسية المحلية لملمة نتائج جلسة الأربعاء الماضي. وكان لافتاً إعلان الرئيس نبيه بري أنه متريث في الدعوة إلى جلسة ثانية قريباً، ونفت مصادر عين التينة أن يكون رئيس المجلس يقف خلف ما أعلنه نائب رئيس المجلس الياس بو صعب عن ضرورة اللجوء إلى خيار الدعوة إلى انتخابات نيابية مبكرة في حال استمر المجلس الحالي عاجزاً عن انتخاب رئيس جديد للبلاد. وربط بو صعب اقتراحه بحالة العجز ليس فقط عن انتخاب الرئيس الجديد، بل عن إطلاق حوار مثمر بين المعنيين من القوى السياسية كافة. وقال إن لعبة الشروط المسبقة القائمة، من شأنها أن تعقّد الأمور أكثر، وتعطل انتخاب الرئيس وتطيل أمد الفراغ، وأن الحل يكون بتجديد الشرعية الشعبية للمجلس النيابي، خصوصاً أن تطورات كثيرة طرأت على البلاد منذ عام إلى الآن.

وكان لافتاً إعلان النائب غسان عطاالله أن بو صعب لم يقدم الاقتراح بالتنسيق مع قيادة التيار الوطني الحر، وأنه يمثل رأيه الشخصي.

(الأخبار)

تحقيق

في بشري... حتى جبران «قوات»!

رلى إبراهيم

لم يلتئم بعد جرح القوات اللبنانية الذي خلّفته نتائج الانتخابات النيابية الأخيرة في بشرّي. منذ 17 عاماً، «يلعب» الحزب في هذه المنطقة وحيداً، حيث «لا يجرؤ المنافسون»... إلى أن تمكّن وليم طوق، ابن عمّ النائبة ستريدا جعجع، من اختراق الحصن القواتي واحتلال الكرسي النيابي الثاني في المنطقة. خرق آخر، ليس أقل إيلاماً، سجّله دخول ائتلاف «شمالنا»، عبر المرشح القواتي السابق رياض طوق، طرفاً ثالثاً إلى المدينة بنيله نحو 10% من أصوات المقترعين، ما نغّص على القوات حلاوة الفوز في غالبية الأقضية الأخرى.

ففي «العقيدة» القواتية، يعادل مقعدا بشرّي كل مقاعد المجلس. وسيطرة خصم على أحدهما يعني أن الخطر قرع الأبواب، وأنه لم يعد في إمكان «الست ريدا» الاسترخاء، خصوصاً مع نائب خدماتي نشيط ومرشح ينتمي إلى ائتلاف شبابي يحمل الخطّ السياسي نفسه. لذلك، تسعى ستريدا إلى تشديد الطوق المحكم منذ سنوات على كل مفاصل المدينة، ويساعدها في ذلك إرجاء الانتخابات البلدية. الحزب الذي يأخذ على خصومه تحالفاتهم مع «أنظمة شمولية»، لا يقلّ شمولية عندما يتعلق الأمر بمسقط رأس «الحكيم». هنا، كل مؤسسة عامة أو خاصة هي مركز حزبي: البلدية واتحاد البلديات ورابطة المخاتير والتنظيم المدني ومصلحة المياه ومخافر الدرك والهيئات العدلية المؤتمنة على التراث في وادي قنوبين والجمعية المؤتمنة على حفظ غابة الأرز ولجنة مهرجانات الأرز. وضمن هذا السياق، لا يمكن أن تكون «لجنة جبران خليل جبران الوطنية» خارج جيب ستريدا.

لكنّ سفن بشري تعاند أحياناً الأهواء القواتية. ففي 11 الجاري، كان مقرّراً انتخاب هيئة إدارية جديدة للجنة جبران مؤلّفة من 15 عضواً. إلا أن ستريدا قرّرت فرض فوز لائحة تدعمها بالتزكية، عبر إلغاء رئيس اللجنة الحالية جوزيف فنيانوس ترشيحات 4 من مرشّحي اللائحة المنافسة، ما أدّى إلى اعتبارها غير موجودة وإعلان فوز لائحة «نحو المئوية الثانية»... ليبقى جبران» المدعومة من القوات بالتزكية. وفيما كان فنيانوس يتحضر لإعلان فوز اللائحة القواتية الأسبوع الماضي، باعتبار الأمر «مفروغاً منه»، جاء قرار المحكمة الابتدائية في طرابلس بواسطة القاضية كاتيا العنداري ليوقف تنفيذ القرار بعد طعن عدد من مرشحي اللائحة المنافسة فيه.

جبران في خدمة سمير

أساساً، «لجنة جبران الوطنية» هي جمعية خيرية أسست منذ أكثر من 100 عام عملاً بوصية جبران خليل جبران، على أن تضم ممثلين اثنين عن كل من العائلات السبع: طوق، رحمة، جعجع، كيروز، فخري، سكر وشديّاق. وإحدى مهمات اللجنة الأساسية تنفيذ وصية جبران بتخصيص كل إيرادات كتبه ولوحاته والمتحف الخاص به لخدمة طلاب بشري وفقراء المدينة. وللمفارقة، كانت اللجنة تقدّم في بداية السبعينيات منحاً للطلاب للدراسة في جامعات خاصة، وكان سمير جعجع أحد الذين استفادوا من منحة قدّمتها اللجنة له لدراسة الطب في الجامعة الأميركية في بيروت.

ولأن جبران خليل جبران نفسه «قواتي» على ما يبدو، تتدخل القوات في انتخابات اللجنة التي تجري كل أربع سنوات، ويقترع فيها الناخبون كما يقترعون في الانتخابات البلدية. فلائحة «نحو المئوية الثانية... ليبقى جبران» برئاسة فادي حكيم رحمة أُطلقت من معراب، في 29 آذار الماضي، والقت ستريدا كلمة يومها أعلنت فيها دعم القوات للائحة.

> **كل مؤسسة عامة أو خاصة هي مركز حزبي: البلدية واتحاد البلديات ورابطة المخاتير والتنظيم المدني ومصلحة المياه ومخافر الدرك والهيئات العدلية...**

وبحسب مصادر مرشحين في لائحة «كاملة رحمة» (والدة جبران) المنافسة، بدأت محاولة تهريب الانتخابات وتأمين فوز اللائحة القواتية بالتزكية منذ اللحظة الأولى التي دعا فيها رئيس اللجنة الحالية إلى إجراء الانتخابات، إذ لم تُنشر إعلانات كما يقتضي النظام في الساحات العامة وعلى جدران الكنائس والمدارس الرسمية، كما سُجّل تناقض في مواعيد تقديم الترشيحات. وفي اليوم الأخير للترشح، توجّه أعضاء اللائحة لتقديم ترشيحاتهم، فتم اختراع أعذار لعدم قبول الطلبات باعتبار أن بعضهم كان قد تقدم بترشيحه وسحبه ثم قرّر الترشح مجدداً. الضغوطات شملت اتصالات من جعجع نفسه ببعض المرشحين (كنصري طوق وميريام جعجع) لثنيهم عن الترشح، ما أحدث إرباكاً في صفوفهم. ومع وصول المرشحين إلى متحف جبران خليل جبران لتقديم الطلبات، لاحظوا وجود حزبيين لا مبرر لوجودهم، قبل أن يرفض رئيس اللجنة طلبات ترشيح ثلاثة منهم، هم نصري طوق وميريام جعجع ودانيال شويري. وكتابة استقالة رئيسة اللائحة رندة شدياق والتوقيع عنها رغم أنها لم تنسحب أو تتراجع عن الترشيح. الإطاحة بـ4 أعضاء من أصل 11 أبقت على 7 أعضاء فقط لا يشكلون وفق القانون لائحة (8 أعضاء على الأقل). والمفارقة أن قرار رئيس اللجنة باستبعاد خصوم القوات جاء، كما ذكر في تقرير أعدّه بنفسه، غداة اجتماع عبر تطبيق «واتساب» حضره 11 عضواً من الهيئة الإدارية من أصل 15، عارض 3 منهم قرار عدم قبول الترشيحات، لكنّ الجميع وافقوا على أن يوقّع بالنيابة عنهم.

مصادر اللائحة المنافسة تؤكد أن 3 من أعضاء اللجنة الحالية لديهم مصلحة مباشرة بالإطاحة بهم لأن لديهم صلات قرابة مباشرة بمرشحين على لائحة القوات. أضف إلى ذلك أن عضوة في اللجنة سقطت عضويتها بعد زواجها من خارج المدينة وشطب قيدها من بشري، ما يعني أن القرار برفض الترشيحات ساقط قانوناً لعدم توفر الغالبية. رغم ذلك رفض رئيس اللجنة أي نقاش مع أعضاء لائحة «كاملة رحمة»، وأعلن فوز لائحة القوات بالتزكية.

في غضون ذلك، تقدّمت رئيسة اللجنة رندة شدياق بدعوى لإبطال قرار منعها من الترشح، كما تقدّم نصري طوق ودانيال شويري بدعوى مماثلة أمام المحكمة الابتدائية في طرابلس الناظرة في قضايا الجمعيات. وأصدرت المحكمة قراراً قضائياً يقضي بوقف تنفيذ قرار اللجنة المطعون فيه، وبالتالي وقف الانتخابات التي كانت مقرّرة في 11 حزيران. ولدى محاولة إبلاغ القرار القضائي رئيس اللجنة، امتنع عن تبلّغه فتُركت له الأوراق على المكتب في مركز اللجنة. وجرت محاولة للهروب من القرار القضائي عبر تسجيل محضر إعلان فوز لائحة القوات بالتزكية الإثنين الماضي، إلا أن وزارة الداخلية التي كانت قد أخذت علماً مسبقاً بوجود نزاع قضائي وقرار وقف التنفيذ رفضت تسجيل المحضر. هكذا، عُلّق فوز اللائحة القواتية إلى حين، رغم وجود تخوف من حصول ضغوطات لتثبيت الفوز بقوة النفوذ السياسي هرباً من انتخابات قد تترك ندوباً إضافية في حصن القوات.

ديمقراطية القوات

مصادر النائب وليم طوق تؤكد أنه سبق أن أبلغ كل من تواصل معه أثناء التحضير للانتخابات أنه لن يعمد إلى تأليف لائحة أو فرض أي مرشح، وأن لا فيتو لديه على أي شخص تختاره العائلات. رغم ذلك، هناك تأكيدات بأن بعض المرشحين مقربون منه. بدورها، تقول مصادر ائتلاف «شمالنا» إن من الطبيعي أن يرغب شباب يدورون في فلك الائتلاف بالترشح، خصوصاً أنهم ناشطون اجتماعيون ومن أصحاب الاختصاص في الأدب والمسرح والسينما. إلا أنها أكدت أن الائتلاف لم يتدخل بشكل مباشر رغم اعتراضه، بصفته فريقاً ناشطاً في بشري، على قمع المنافسة. فـ«من حق البشراويين أن يتنافسوا على إرث جبران خليل جبران ديمقراطياً».

في اتصال مع رئيس اللجنة الحالية جوزيف فنيانوس، أحال «الأخبار» إلى بيان صادر عنه منذ نحو أسبوع على صفحة اللجنة على «فايسبوك» يشير فيه إلى أنه «بالتنسيق مع النائبة ستريدا جعجع وفاعليات المدينة، آثرنا عدم التمديد للجنتنا آسوة بالتمديد الذي أقرّه مجلس النواب للبلديات إيماناً منا بالديمقراطيّة ومبدأ تداول السلطة في مجتمعنا، وإفساحاً بالمجال أمام من يختاره البشراويون لتولي هذه المسؤوليّة». إلا أنه «في اليوم الأخير للترشيح، حضر شخصان وتقدّما بطلبات ترشيح لـ11 مرشحاً... وقد لفتنا منذ اللحظة الأولى اختلاف الخط بين تعبئة الطلب والإمضاء، وساورتنا الشكوك بأن أصحاب الطلبات لم يقوموا شخصياً بتعبئة طلباتهم بحسب ما ينص عليه القانون الداخلي... لتصلنا بعدها ثلاثة كتب تتضمّن تراجعاً عن الترشيح. والمفاجأة الكبرى كانت عندما قمنا بمقارنة تواقيعهم على كتاب الرجوع عن الترشيح بتواقيعهم على طلبات الترشيح التي قُدمت لنا عبر رحمة وكيروز، فوجدنا أنها غير مطابقة بتاتاً». بعد ذلك يقول الرئيس في بيانه إنه تسلّم «رسالة صوتية عبر الواتساب من مرشحَين يطلبان عدم تسجيل عودتهما عن الترشح. «وبما أنني عاهدت نفسي منذ تولي رئاسة اللجنة أن أطبّق القانون بحرفيته، قمت بتسجيل الكتب في المحضر لأن ما يُطلب مني غير قانوني باعتبار أنني تسلّمت رسمياً كتب تراجع عن الترشيح ويريدون مني تجاهل هذا الأمر، وكأنّ شيئاً لم يكن». وقال فنيانوس إنه فوجئ بتقدم مرشحين بدعوى قضائية نُشرت عبر مواقع التواصل الاجتماعي قبل تبلّغه بها رسمياً عبر المحاكمة، لذا «تابعت اللجنة عملها كما يجب والتأمت وأعلنت فوز» لائحة «نحو المئوية الثانية... ليبقى جبران» بالتزكية.

(هيثم الموسوي)

تقرير

المدير العام للتربية يبتز أساتذة الخاص: قفوا معنا في وجه معلّمي الرسمي

(هيثم الموسوي)

فاتن الحاج

تسرّب، أمس، عبر مواقع التواصل الاجتماعي، فيديو مصوّر للمدير العام للتربية، رئيس اللجان الفاحصة في الامتحانات الرسمية، عماد الأشقر، يهدد فيه بعض ممثلي أصحاب المدارس الخاصة بنقل طلابها إلى أقضية أخرى، كان يأخذ طلاب كسروان إلى بعقلين والضاحية الجنوبية وغيرهما من المناطق، ما لم يشارك الأساتذة في أعمال المراقبة في الامتحانات. وذكّر على وجه الخصوص منطقة كسروان في محافظة جبل لبنان التي تضم 20 ألف تلميذ في المدارس الخاصة، فيما أبدى أستاذ واحد فقط رغبته في المشاركة. واعترف الأشقر، في الفيديو، أنه هو من كان وراء اقتراح إجراء امتحانات البريفيه في العام الدراسي 2020 - 2021 داخل المدارس الخاصة وتحويلها من استحقاق رسمي إلى امتحانات مدرسية!

لكن، ليس مفهوماً لماذا استخدم الأشقر لهجة ابتزاز وبدت على ملامحه علامات التوتر، مع أنه أصدر في وقت سابق تعميماً يجبر أساتذة التعليم الرسمي على المشاركة في أعمال الامتحانات، ولم تعلن أي من روابط التعليم مقاطعة الاستحقاق حتى الآن، ما ينفي فرضية النقص في الأعداد مبدئياً، علماً أن المرسوم الرقم 9189 الصادر في 18 أيار 2022 والذي يجيز إشراك القطاع الخاص، نصّ في مادته الثانية: «كما يمكن أن يُكلّف بهذه الأعمال (مراقبة الامتحانات الرسمية) أفراد الهيئة التعليمية في ملاكات المدارس الخاصة العاملة بشكل قانوني، إذا استدعى حسن سير هذه الامتحانات اللجوء إلى هذا التكليف، وتُدفع بدلات المراقبة لهؤلاء جميعاً من الاعتمادات الملحوظة لإجراء وزارة التربية». يعني هذا أنه يمكن الاستعانة بأستاذ التعليم الخاص، إذا لزم الأمر، ودوره ليس أساسياً في المراقبة. كما أن المرسوم في حد ذاته يندرج في إطار خطة مبرمجة للتضييق على أساتذة التعليم الرسمي والالتفاف على حقوقهم وإفقارهم، ويقضي على آخر صلاحية يتمتع بها التعليم الرسمي، تمهيداً للاستغناء تدريجياً عن أساتذته ومهامهم التي تكرّسها المراسيم والقوانين منذ عشرات السنين. ولم يخفِ الأشقر في كلامه أن القطاع الخاص هو الأساس بالنسبة إليه ويجب أن ينخرط من باب أنه يضم 75% من تلامذة لبنان.

هل وضع الأشقر خطة (ب) استباقاً لأي قرار مقاطعة يمكن أن يقدم عليه أساتذة التعليم الرسمي، ثم خُذل وأصيب بخيبة أمل من عزوف القطاع الخاص عن مراقبة الامتحانات، وشعر أنه فقد السيطرة على قطاع ينتظر منه أن يحل محل التعليم الرسمي ويعتبر أنه في جيبته ورهن إشارته؟ وهل سحب المدير العام، بعدم مونته على القطاع الخاص، من يد الوزير ورقة الضغط التي كان يمكن أن يهدد بها أساتذة التعليم الرسمي إذا قاطعوا الامتحانات؟ ولماذا الانتقام من الطلاب بتسريب فيديو قبل ثلاثة أسابيع من موعد الامتحانات الرسمية، ما يزيد منسوب التوتر لديهم؟ وهل تأمين حسن سير الامتحانات يكون بابتزاز التعليم الخاص أم بالسعي لتأمين الحوافز المناسبة لأساتذة التعليم الرسمي وضمان مشاركتهم في الاستحقاق؟

رئيس نقابة المعلمين في المدارس الخاصة، نعمه محفوض، أكّد أنّ لا أحدَ يستطيع أن يجبر أساتذة التعليم الخاص على المشاركة في الامتحانات إذا كانوا لا يريدون ذلك، خصوصاً أن دفع البدلات يأتي متأخراً، وإن «كنت أجد في كلام الأشقر شيئاً من المنطق لجهة أن حجم القطاع الخاص يفرض أن يكون حاضراً في كل مفاصل الاستحقاق»، إلا أن محفوض شدّد على «أننا لن نسمح بمشاركة أساتذتنا في الامتحانات إذا قرّر زملاؤنا في التعليم الرسمي المقاطعة ولن نطعنهم في الظهر».

> **الأشقر يهدد المدارس الخاصة بنقل تلاميذها إلى مراكز امتحانات بعيدة**

لكنّ السؤال: إذا حصل ذلك فعلاً، هل تضمن النقابة استجابة أساتذة التعليم الخاص لموقفها؟

«الأخبار» حاولت التواصل مع الأمين العام للمدارس الكاثوليكية، يوسف نصر، الذي كان حاضراً في لقاء الأشقر مع ممثلي المدارس الخاصة عبر تطبيق «زووم»، إلا أنه كان غائباً عن السمع منذ صباح أمس.

مراقب للامتحانات توفي قبل عامين!

فيما تدافع المديرية العامة للتعليم المهني والتقني عن جدية الامتحانات الرسمية المهنية وتدّعي الشفافية في التحضير للاستحقاق الذي يبدأ في مرحلته الأولى، الإثنين المقبل، بدا مستغرباً إدراج اسم إ. م. كمراقب عام إداري في مركز الشيخ محمد يعقوب المخصّص للامتحانات، علماً أنه توفي في 11 أيار 2021، فهل أُدرج اسمه في امتحانات العام الماضي 2021 - 2022 التي جرت بعد وفاته؟ وهل يتكرر هذا الأمر في مراكز أخرى؟ ومن ينال تعويضات الامتحانات عوضاً عنه؟ وهل يقتصر هذا الإجراء على الامتحانات فحسب، أم أن أسماء متوفين مدرجة أيضاً في اللوائح التي ترفعها المديرية إلى وزارة المال في شأن الرواتب والتعويضات؟ وماذا عن الحوافز بالدولار الأميركي التي تُعطى من الجهات المانحة؟ وهل هناك من يتقاضاها نيابة عن متوفين؟

(الأخبار)

عقم النظام السياسي اللبناني قبل الطائف وبعده

أسعد أبو خليك *

لم يكن النظام اللبناني يسيرُ يوماً وفقَ أحكام الدستور اللبناني، أو حتى وفقَ أحكام الميثاق الوطني. الذي يدرسُ النظام السياسي اللبناني منذ الاستقلال حتى اندلاع الحرب الأهلية، يرى أن النظام، بعيداً عن سراب «الزمن الجميل»، كان نظام الرئيس المستبدّ المتفرّد بالحكم. طبعاً، كان هناك انتخابات نيابيّة، وكان هناك مجلس وزراء وكانت الانتخابات أحياناً تجرى على غير ما يريد الرئيس (وإن كان الرئيس يتدخّل أحياناً من أجل ضمان وصول أزلامه إلى المجلس وحرمان خصومه من الفوز، وخصوصاً إذا ما كان ينوي التجديد كما فعل كميل شمعون في انتخابات 1957 والتي فصّلها على مقاسه وقامت الحكومة الأميركية بتمويلها). ورئيس الوزراء لم يكن ذا سلطة أبداً (يقول رجل أعمال لبناني عرف عهوداً متعاقبة، وشغل منصب مستشار لأكثر من رئيس جمهوريّة وحكومة، إن كل رؤساء الوزراء كانوا «طراطير»). كان رئيس الجمهوريّة يستبدلُ رؤساء الحكومات بسهولة فائقة: إذا تمرّدَ واحدٌ يأتي ببديل منه أو بمنافسه لمعاقبته، وكان هناك نادٍ (غير رسمي) كان يُسمّى «نادي رؤساء الوزراء»، في إشارة إلى هؤلاء الذين يُبدون استعداداً للانضواء في معسكر الرئيس الحاكم، أو هم خدموا في الماضي ويريدون العودة إلى الكرسي. وكلمة «الكرسي» كانت تُستخدم للإشارة إلى تلك الجاذبيّة البرّاقة التي تستحوذ على عقول الطامحين إلى رئاسة الوزارة.

لم يكن هناك رئيس وزراء يحكم قبل الحرب الأهلية. صائب سلام كان له من الجرأة في 1973 (بعد اغتيال قادة المقاومة في بيروت) أن يعترف بأن من الضرورة الاعتراف بأن الرئيس يستأثر بالحكم، وفق مزاجه هو (وبالتفاهم مع قوى خارجية من دون المرور بمجلس الوزراء أو حتى بوزارة الخارجية). يكفي أن نعرف أنه كان للرئيس اللبناني مستشارُ اتصال مختصّ مهمته التواصل السرّي مع الإدارة الأميركية خارج أقنية وزارة الخارجية اللبنانية (ميشال خوري لعب الدور في عهد شارل حلو، فيما لعب أنطوان الدحداح الدور في عهد سليمان فرنجيّة).

> **النظام السياسي قبل الحرب الأهلية كان نظاماً قائماً على التكاذب. و«الميثاق الوطني» كان أبعد ما يكون عن تفاهم بين المسلمين والمسيحيين**

> **النظام السياسي الذي تشكّل بعد الطائف عانى من مشكلة كبيرة، أساسها حول كيفية انتقال السلطة إلى مجلس الوزراء مجتمعاً، فيما مجلس الوزراء ليس إلا مجلس الطوائف**

هذا لا يعني أنه لم يكن هناك تنافس حقيقي في داخل النظام السياسي اللبناني. كان هناك تنافس، ولكن التنافس كان محكوماً ومضبوطاً. كان هناك تنافس، مثلاً، بين كامل الأسعد وصبري حمادي، بين آل الزين وآل الأسعد، بين آل عسيران وآل الزين، كما كان هناك تنافس بين عبد الله اليافي وصائب سلام وعثمان الدنا. وكان هناك تنافس بين كمال جنبلاط ومجيد أرسلان، لكن كل هؤلاء كانوا يحتاجون إلى غطاء ورعاية من رئيس جمهورية من أجل التمتّع بحظوة الحكم، أو القرب منه. لم يكن لحزب الكتائب (الذي كان فرقة متطرّفة من المتعصّبين الفاشيين) أن يصعدَ في الحياة السياسية اللبنانية لو لم يدعم فؤاد شهاب حزب «الكتائب» نكايةً بريمون إده، المنافس المزعج لفؤاد شهاب. وكامل الأسعد ضمنَ رئاسته للمجلس لأنه كان ملحقاً بسليمان فرنجية، وكان جزءاً من تكتّل «الوسط» الذي رشّحه للرئاسة في عام 1970. صائب سلام كان مأمولاً منه أن يستمرّ رئيساً للحكومة في عهد فرنجيّة، إلا أنه تمرّد بعدما اكتشفَ أن لا نيةَ للزعامات المارونية لتلبية المطلب الإسلامي في ما كانَ يُسمّى مطلب المشاركة (أي تعزيز صلاحيات رئيس الحكومة وإشراكه بالفعل في الحكم، وإن من موقع أضعف). ننسى اليوم أن المسلمين، وغير المسلمين من المعارضة في لبنان، كان لهم قبل الحرب مطالب خاصة بهم خارج ملف القضية الفلسطينية. السائد اليوم هو أن كل الصراع في لبنان حول المقاومة الفلسطينية ودورها في لبنان. المقاومة الفلسطينية كانت بعداً من أبعاد مختلفة من الحرب الأهلية، واختصارُ الصراعات اللبنانيّة الأهليّة بالمقاومة كان من أجل ترسيخ سردية حزب الكتائب اللبنانية، ومن أجل إغفال الظلم والجَور الذي فرضَه الحكم اللبناني قبل الحرب على جميع اللبنانيين طائفيّاً وطبقيّاً وسياسيّاً.

النظام السياسي قبل الحرب الأهلية كان نظاماً قائماً على التكاذب. و«الميثاق الوطني» كان أبعد ما يكون عن تفاهم بين المسلمين والمسيحيين أو بين النخبة السياسيّة السنّيّة والنخبة السياسيّة المارونيّة. لم يكن ذلك صحيحاً على الإطلاق بالرغم من ترويجات الكتابات عن «الميثاق» من قبل باسم الجسر وغيره. جعلوا منه تجلّياً لنموذج «الديموقراطيّة التوافقيّة» (وهو نموذج أو تصنيف نظري)، وليس نظام حكم كما يدرجُ القول في لبنان). السرديّة تقول إنه كان هناك تفاهم بين النخب الطائفيّة الحاكمة وإن ذلك أدّى إلى تعزيز الديموقراطية في لبنان. في الحقيقة، لم يكن هناك من سلطة أو نفوذ للنخب السنّيّة السياسية لأن كل رئيس وزراء كان يدين لرئيس الجمهورية بمنصبه وبأجل منصبه. وكان لكل زعيم ماروني أدوات من السياسيين السنّة والشيعة والدروز. كان مجيد أرسلان تابعاً لشمعون، كما كان كاظم الخليل تابعاً لشمعون، وسامي الصلح كان تابعاً لشمعون وقسّ على ذلك. الفكرة أن النخبتين اللبنانية والمارونيّة توصلتا إلى معادلة لتجنّب توريط لبنان في السياسة الخارجية بما يمكن أن يؤدي إلى انقسام بنيه كانت باطلة منذ التأسيس: النخب المارونيّة الحاكمة (كلّها من شمعون إلى إده والجميّل والحلو) ارتبطت بدول الغرب، وبالدول العربية المرتبطة بالغرب، على امتداد كل سنوات تاريخ لبنان المعاصر منذ الاستقلال حتى نشوب الحرب الأهلية اللبنانية. كان لبنان، في كل مفاصل التاريخ العربي المعاصر، في صف دول الغرب والخليج. لبنان عادى كل المشاريع القومية العربية في الزمن الناصري. كان الناشطون الناصريّون والقوميّون العرب في لبنان يتعرّضون للاضطهاد والسجن في سنوات ما يُسمّى بشهر العسل بين فؤاد شهاب وجمال عبد الناصر. كان لجمال عبد الناصر ما يكفيه من مشاغل قوميّة وضغوط صهيونيّة غربيّة ومحليّة لدرجة أنه لم يكن يريد تفجير الوضع في لبنان، حتى لو أن ذلك كان في مصلحة الفريق القومي العربي. والذي كان مسؤولاً عن ضبط الوضع في لبنان كان جمال عبد الناصر من خلال الضغط على مريديه لتقديم التنازلات والولاء لنظام فؤاد شهاب وشارل الحلو. في سياسات معاداة الشيوعية واليسار، كان لبنان يُسخّر أجهزته الأمنية والتجسّسيّة لتقديم العون للحرب الأميركية ضد الشيوعية دور العالم. الأرشيف الخاص لفريد شهاب يؤكد أن أجهزة الأمن لم تكن إلا أداة بيد الطرف الغربي في الحرب الباردة. أي أن لبنان كان منحازاً للغرب في الحرب الباردة على الصعيد العالمي والإقليمي، خلافاً لاتفاق «الميثاق الوطني». وفي الصراع العربي الإسرائيلي كان لبنان دوماً في موقف متناغم مع السفارة الأميركية في بيروت (ومع السفارة البريطانية قبل ذلك) من أجل إخلال لبنان بالتزاماته القوميّة، عبر ميثاق الدفاع العربي المشترك. لبنان نأى بنفسه عن الحروب العربية الإسرائيلية حتى عندما كانت إسرائيل «تزوره» في الحروب والاجتياحات والغزوات. كان لبنان يعتبر نفسه غير معنيّ ليس فقط بما يجري على الجبهات العربية مع إسرائيل، بل حتى على ما تقوم به إسرائيل من عدوان على أرض لبنان. هذه هي حقيقة «الميثاق الوطني» الذي يريد البعض العودة إليه. أمّا الحديث عن العروبة اليوم، من خلال الفريق اليميني الرجعي فلا يعني إلا إسباغ عباءة العروبة على السياسات الغربية الرجعيّة عينها التي كانت موجودة في زمن الحرب الباردة. اتفاق الطائف أراد أن يُصلح النظام السياسي اللبناني إصلاحاً طفيفاً وبناءً على قواسم مشتركة بين القليل من مشروع الحركة الوطنية اللبيرالي والكثير من مشروع حزب الكتائب اللبنانية في السياسة الخارجيّة وفي الهويّة. في الهويّة، اعتنقَ اتفاق الطائف الرؤية الفينيقية وتحدّث عن كيان لبناني أزلي ضارب في القدم والانتهائية. أمّا الكلام عن العروبة فكان ليس أكثر من نقل الهوية من وجه لبناني، حسب «الميثاق الوطني»، إلى إسباغ الهويّة على كامل الجسم اللبناني. التغيير الأكبر الذي حدث في سياسة النظام السياسي اللبناني بعد الطائف هو في تقليص، أو تحجيم، دور رئيس الجمهورية اللبنانية، وكان هذا ليس فقط نتيجة رجحان الكفة الديموغرافية (التي تمّ تجاهلها لعقود من أجل تسويق الحظوة المارونية السياسية في النظام السياسي) وإنما هو نتيجة لهزيمة ميليشيات الزعماء الموارنة، ونتيجة أيضاً للتعنّت الذي بدر في فترة حكم سليمان فرنجية وأمين الجميل. والصراعات بين الزعماء الموارنة، كما كان ريمون إده يقول دائماً، أضعفت موقع رئيس الجمهورية الذي كان يستطيع أن يستغل الموقع لتحسين موقعه ولإضعاف خصومه ومحاربتهم، وهذا يسري على فؤاد شهاب كما يسري على كميل شمعون.

الحكم على نظام الطائف يبقى منقوصاً لو أنه انحصر بحقبة سيطرة الطائف المارون السوري في لبنان. النظام السوري كان يستطيع أن يلعب دور الحَكَم، وإن كان منحازاً، ودور المنفّذ أو الفارض. وكان للسعودية دور في ذلك الحين، طبعاً. عندما أصرّ رفيق الحريري على رفض إطلاق اسم كميل شمعون على مدينة بيروت الرياضية لم يستطع إلياس الهراوي إقناعه، حتى بعدما استعان بالنظام السوري. فما كان من الهراوي إلا أن استغلّ زيارة الأمير عبد الله للبنان ليطلب منه إقناع الحريري، وكان له ما أراد (كم كان مُطيعاً الثائر رفيق الحريري). وخلال مرحلة سيطرة النظام السوري، استمر استشراء الفساد. كان فاسدو لبنان الذين يسخرون في عطاءاتهم على عبد الحليم خدام وضباط المخابرات السورية في لبنان، ينالون مكاسب سياسية. هذا يسري على فيصل درنيقة وعلى ميشال المرّ، وطبعاً يسري أكثر من أي شخص على رفيق الحريري الذي استطاع أن ينشر نعمه على حكمت الشهابي وعبد الحليم خدام وغازي كنعان، أي أنه أسّس جناحاً فاسداً داعماً له داخل النظام السوري. ومن المعروف أن لدى الخبير الأميركي في الشأن السوري، جاشوا لاندس، نظرية مفادها أن فريق الحريري في دمشق كان يُعدّ للاستيلاء على الحكم وأن ذلك هو الذي تسبب في قتل رفيق الحريري.

النظام السياسي الذي تشكّل بعد الطائف عانى من مشكلة كبيرة، أساسها حول كيفية انتقال السلطة إلى مجلس الوزراء مجتمعاً، فيما مجلس الوزراء ليس إلا مجلس الطوائف، وبدين فيه الوزراء لزعماء طوائفهم، وفيما الرئيس يعلو على الأعضاء بدرجة تتعلّق بشخصه ورعايته الخارجيّة. ولهذا، لم تكن صلاحيّات رئيس الوزراء في تلك الفترة السوريّة متساوية بين الذين تولّوا المنصب. سليم الحص كان أضعف بكثير من رفيق الحريري، ورشيد الصلح وعمر كرامي كانا أضعف من رفيق الحريري، لأن الحريري يتمتّع بقوّة ونفوذ هائلَيْن. وعناصر قوّته كمنت في الفساد الهائل الذي ارتبط بسلطته السياسية حيث (على طريقة أبو عمار) ابتاع لنفسه نواباً ووزراء، حتى من أحزاب وتيّارات خارج تيّاره السياسي. فترة سليم الحص كانت ضعيفة جداً لأنه عانى من ضعف التأييد السوري له، بسبب رفضه بناء قاعدة طائفيّة له، مثل الحريري، ولم يكن لديه علاقة بالعطاء الفاسد على ضباط المخابرات السورية. ولم يزرع في داخل الوزارات دكاكين تابعة له، بالتنسيق مع مكتب الأمم المتحدة في لبنان (كان لرفيق الحريري وزارات ظلّ تعينه أثناء فترة حكمه وتعطّل حكم خصومه في الفترات الوجيزة التي غاب فيها عن الحكم). أي أن الحكم المجرّد على طبيعة النظام السياسي اللبناني بعد الطائف غير ممكن لأن ما شاب تجربة النظام اللبناني بعد الطائف ظهر بوضوح بعد خروج الجيش السوري من لبنان، أي أن المشاكل التي نعاني منها الآن في لبنان هي من نتاج سقم اتفاق الطائف.

وإصلاح النظام السياسي بعد الطائف افترض أن زعماء السنّة والشيعة سيبقون متفقين وأن الانقسام في لبنان سيبقى كما كان في فترة الحرب الأهلية بين المسلمين والمسيحيين، واليسار واليمين. هذا تغيّر كلياً بعدما بلع رفيق الحريري اليسار وانضوى في مشروع تاجيج مذهبي. الحرب المذهبية التي فجّرها التحالف الغربي الإسرائيلي الخليجي في المنطقة برمّتها غيّرَ طبيعة الصراع في لبنان. كما أن فترة النظام السوري فرضت، بقوة الترهيب والترغيب، ثقافة سياسيّة مصطنعة في لبنان. لو تعود إلى الصحف بعد سنة واحدة من خروج الجيش السوري من لبنان لرأيتَ تصاريح وخطباً من قبل كل قادة 14 آذار، وفيها يلهجون بحمد المقاومة ويتحدّثون عن عداء حادّ لإسرائيل، وعن حقّ لبنان في دعم المقاومة والحفاظ على سلاحها. كان هذا بعد خروج الجيش السوري من لبنان وبعد تحرير الجنوب في عام 2000، وكان هؤلاء يقسمون أغلظ الأيمان على الضرورة الوطنية في تحرير مزارع شبعا وتلال كفرشوبا. العودة إلى الأرشيف صادمة (أذكر مرّة بعد اغتيال الحريري أنني زرتُ جوزيف سماحة في مكتبه في جريدة «السفير» وبدا لي متفجّعاً. فسألته عن سبب ذلك فأجابني: لا أدري ما خطر لي صباح هذا اليوم، إذ رجعتُ إلى الصحف قبل عام واحد من اليوم). والنظام السياسي اللبناني المكتوب لا يلحظ مؤثرات غير واردة في الدستور. ليس هناك في الدستور ما يشير إلى النفوذ الهائل الذي يتمتع به البطريرك الماروني، وخصوصاً بعد انسحاب الجيش السوري من لبنان. البطريرك الماروني يقدّم قائمة بمرشحين موارنة للرئاسة في لبنان. البطريرك الماروني له سياسة خارجيّة خاصة به حتى وإن تناقضت مع ما اتفق عليه ممثلو وممثّلات الشعب اللبناني. البطريرك الماروني ابتدع مشروع الحياد الذي يتعارض مع اتفاق الطائف (ومع «الميثاق الوطني»). وطبعاً، هذا نتاج تاريخ لبنان الذي شهدَ سياسة خارجية خاصّة بالبطريركيّة المارونيّة، وسمحَ لها بعقد اتفاقية سريّة مع الحركة الصهيونية في عام 1946. ولا يذكر الدستور المكتوب أن الكثير من الزعامات في لبنان يدينون بالولاء لأنظمة خارجيّة. الجميع في صف 14 آذار يتحدّثون اليوم عن ولاء الثنائي الشيعي لإيران، ولكن ماذا عن ولاء زعامات بحالها للنظام السعودي؟ هذه الزعامات تسبّبت على خطف واعتقال رئيس حكومة لبنان للمرة الأولى في تاريخه.

وكما أن موقع رئاسة الحكومة يخضع لشخصيّة ونفوذ الشخص الذي يتبوّأ المنصب، فإن منصب رئاسة مجلس النواب يخضع لنفوذ وسلطة الشخص الذي يتبوّأ المنصب. لم يكن منصب رئيس مجلس النواب قوياً في فترة حسين الحسيني. المنصب في حقبة نبيه برّي قوي، ليس لأن له صلاحيّات جديدة أو مُزادة عليه منذ الطائف، بل لأن شخصية رئيس المجلس الحالي قوية (بحكم قيادته لحركة سياسيّة كبيرة) وقد راكمَ خبرات ونفوذاً أهّله لكي يكونَ أقوى شخصيّة في الدولة اللبنانية بعد رفيق الحريري (في حقبة النظام السوري)، كان رفيق الحريري أقوى شخصية في الدولة، بحكم شخصيّته وفساده ورُشاه ورعايته من الخارج السوري والسعودي والغربي. وكان نبيه برّي يتصارع معه حول صنع القرار.

ورأينا أن موقع رئيس الجمهوريّة تقلّص كثيراً بعد خروج الجيش السوري من لبنان، لأن النظام السوري كان يدعم موقع الرئيس في لعبة توازنات لم يرثه فيها أحد. أصبحت رئاسة الجمهورية، كما جعلها الطائف، ضعيفة وخالية من الصلاحيات إلا الشكلية والمُنبرية (لا أقلّ من أهمية السلطة المُنبرية لرئيس الجمهورية وهناك مصطلح بالإنكليزية اجترحه الرئيس ثيودور روزفلت عن هذا الجانب من سلطات رئيس الجمهوريّة هنا).

ماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أننا في نظام سياسي هَشّ، ومعطّل ومتأثر بالعلاقات بين الطوائف. عندما يتوافق زعماء السنّة والشيعة فإنهم، كما حصل في فترة النظام السوري، سينتقون ما يلائمهم من ممثلي المسيحيين. وإن ساءت العلاقة بين زعماء السنّة والشيعة فإنهم سيستخدمون ممثلي المسيحيين لترجيح كفتهم. والرعاية الخارجيّة في لبنان قويّة، لكنها تخضع لبروباغندا تُخفّف من السلطة الهائلة لدول الغرب وتهوّل بسلطة مفترضة للنظام الإيراني أو حتى النظام السوري. نستطيع أن نقول اليوم إن سلطة النظام السوري ونفوذه في لبنان لا يزيدان عن سلطة ونفوذ النظام الجزائري أو التونسي. والنظام السوري والإيراني يفوّضان الأمين العام لحزب الله التصرّف بما يراه ملائماً للمحور. وهذه سلطة محليّة وليس هناك ما يوازيها في الطرف الآخر الخاضع بالتمام للرعاية الغربية الخليجية له. هذا النظام المرسوم في الطائف كان محتّماً له أن ينتج أزمات، وخصوصاً أنه لم يقرّر إذا كانت الطائفية هي في صلب النظام أو أنها شكليّة ومؤقتة. وطلع الطائف بنفس تخريجة دستور 1926 بأنها مؤقتة، والمؤقت دائمٌ حتى اشتعال حرب ما في تاريخ لبنان المعاصر.

الحل في لبنان إمّا أن يكون علمانياً بالكامل، وتُنزع الهوية الطائفية من النصوص من دون الغوص في تحليل النفوس، وأن نجعل من لبنان دائرة انتخابية واحدة وأن ننتخب الرئيس من الشعب. أو أن نقبل بالحل الطائفي لكن أن نجعل من الحكم جماعيّاً بأن نقلّد النظام السويسري بتشكيل مجلس رئاسي يتناوب على إدارته ممثّل من طائفة ما بالتناوب والتداول. لكنّ حلولكم الطائفية لا تغريني بالحديث.

* كاتب عربي - حسابه على تويتر @asadabukhalil

(هيثم الموسوي)

فجر السعيد غير مرغوب بها

أحمد طقشة *

أوّل الكلام أنا لست متضامناً ولا متعاطفاً مع الإعلامية الكويتية الزميلة فجر السعيد. وأؤيد تطبيق القانون اللبناني الذي يمنعها من دخول لبنان لأنها زارت إسرائيل الدولة العدوة، وهو فعل، بالمناسبة، يجرّمه القانون الكويتي أيضاً.

الموضوع أنها خالفت قانون بلدي وبلدها، فنالت عقابها، وليس في معاقبتها ولو شبهة اعتداء على حرية رأي وتعبير وقول.

وأتوقّع أن فجراً تعيش أسعد لحظات عمرها، تقهقه أمام المرآة وتفرك يديها فرحاً منتشية بالهمروجة التي افتعلتها جوقة فؤاد السنيورة وسمير جعجع وأشرف ريفي ومارسيل غانم. تبحث عن مجد وشهرة رماهما لها هؤلاء ليس حباً فيها، بل لكراهية عمياء بحزب الله!

وأحتقر جوقة الطبّالين الانتهازيين السخفاء المادّي أيديهم، وأشمئزّ من الألسنة المعبأة بالحقد والقاذورات، يتوهم أصحابها أن موقفهم يحشر حزب الله ويحرجه، ويرضي الكويت فتفتح يدها بالعطاء.

وأسخر منهم عندما يكذبون أن تطبيق القانون بحق السعيد أو غيرها إساءة إلى العلاقات مع الكويت التي تقف مع لبنان في السراء والضراء. الكويت تعلن على لسان قيادتها السياسية أنها ستكون آخر دولة عربية يمكن أن تطبّع مع إسرائيل. وقاتل جيشها في كل الحروب العربية مع الدولة العدوة واستشهد أبناؤها من أجل فلسطين وقضيتها. وتعاقب مواطنيها الذين يزورون إسرائيل.

الكويت ترعى مواطنيها لكنها لا تترك لهم العنان لخرق قوانين البلدان الأخرى أو استغلال المنابر للإساءة إلى مسؤولين في تلك البلدان. ليطمئن السنيورة وجعجع، فعلاقات لبنان والكويت بخير. ولا أظن أن الاثنين يحظيان بقدر من الاحترام في الدولة الشقيقة يخوّلهما التأثير في تلك العلاقات، ولا أريد أن أقول أكثر.

الإعلام الكويتي تجاهل إبعاد فجر السعيد، باستثناء جريدة واحدة لا غير، صحيفة «السياسة»، فهو إعلام راقٍ، رفيع المهنية، لا يقع في بذاءة بعض السياسيين والإعلام في لبنان الذي نقل عن «مصادر كويتية» أن الإجراء اللبناني سيترك آثاراً سلبية على علاقات البلدين. المصادر وهمية طبعاً، والمنقول عنها كذب ورياء. فالكويت لا يمكن إلا أن تحترم قراراً سيادياً مارسته دولة أخرى كما تمارسه هي نفسها وكل الدول. فالكويت تمنع لبنانيين من دخول أراضيها. ثم من قال إن السيدة فجر السعيد تمثّل، في مواقفها وسلوكها، دولة الكويت؟ مصابون بالعمى أساؤوا إلى الكويت كما أساءت فجر السعيد إلى بلدها والبلد الذي منعها من دخول أراضيه. وإعلامي لا يحترم ذاته ولا شرف مهنته، استغلّ شاشته ليعتذر إلى مطبّعة مع عدو خارقة لقانون بلده.

> **الكويت ترعى مواطنيها لكنها لا تترك لهم العنان لخرق قوانين البلدان الأخرى او استغلال المنابر للإساءة إلى مسؤولين في تلك البلدان. ليطمئن السنيورة وجعجع، فعلاقات لبنان والكويت بخير**

ما جرى قرار سيادي كامل للسلطات اللبنانية. أمّا تصنيفه اعتداء على حرية رأي كما تدعي الإعلامية والمطبلون لها، لأنها انتقدت السيد حسن نصرالله وسلوكه واتهمته بالجبن، فيعيش في سرداب، فبطولة وهمية تدّعيها لنفسها، أمّا غيرة القبيضة على الحريات، فكذب وانتهازية وسعي للاسترزاق. ما فعلته فجر السعيد تجاوز على القانون لا تنطبق عليه أي من سمات حرية الرأي والتعبير. فنصرالله ليس جباناً، ولا يحتاج إلى شهادة على شجاعته، وهو يتعرض يومياً لنقد من لبنانيين وغيرهم، بكلام فيه بذاءة أكثر مما في كلامها عنه، وأذكر فقط الكاتب الصحافي الكويتي الكبير الزميل فؤاد الهاشم الذي كتب عشرات المقالات الانتقادية القوية ضد نصرالله وحزب الله. لكن إن لم تستحِ فافعل وقل ما شئت.

فجر السعيد لم تكتف بأن هواها إسرائيلي، وتستمر للترويج لإسرائيل الدولة العدوّة، بل زارتها وتعمّدت ألا تستتر على معصيتها. زيارة يجرّمها القانونان اللبناني والكويتي، ومن حق لبنان وواجبه أن يطبّق قانونه ويعتبر السعيد غير مرغوب بها.

اللبنانيون مضيافون إلا أنهم لا يحبون من يستوطي حائط بلدهم، فكيف إذا كان عاشقاً لإسرائيل ومن دعاتها؟!

أخيراً، أنصح فجر ألا تقيس نفسية اللبنانيين وكبريائهم على أمثال السنيورة وجعجع وريفي وغانم كي لا ترتكب مزيداً من الأخطاء!

* صحافي لبناني يكتب في الصحافة الكويتية

الحدث

رسائل تحدٍّ متبادلة عشيّة «أستانا» عودة التسخين الميداني إلى سوريا

علاء حلبي

واصلت تركيا تصعيد هجماتها على مواقع سيطرة «قوات سوريا الديموقراطية» (قسد)، بينما كثّفت الولايات المتحدة تحرّكاتها لتحصين مواقع سيطرتها، مُستقدمةً تعزيزات جديدة إليها، وازدادت الاحتكاكات مع القوات الروسية التي كثّفت طلعاتها الجوية الرقابية على طول الشريط الحدودي مع تركيا في الشمال، والأردن قرب قاعدة التنف الأميركية جنوباً، وذلك بعد التحرّكات الأميركية الأخيرة. وبالتوازي مع ما يشهده الميدان من تسخين متواصل على جبهة إدلب، التي تمثّل العقدة الأولى الأبرز على طريق التطبيع بين دمشق وأنقرة، يبدو أن مساعي موسكو وطهران لإعادة تشكيل خريطة الصراع، والدفع نحو رسم آلية لهذا التطبيع من خلال «مسار أستانا»، لن تكون ميسّرة.

وفي الوقت الذي تتّجه فيه الأنظار إلى إدلب، التي يُراد لها أن تفتح الباب أمام تعاون اقتصادي يحقّق مصالح ثنائية لأنقرة ودمشق، كثّفت القوات التركية عمليات استهداف مواقع «قسد» في ريف حلب الشمالي الشرقي وتحديداً في تل رفعت ومنبج. وأعادت هذه العمليات إلى الأذهان ارتباط ملفّ المنطقتَين المذكورتَين بإدلب، إذ وفق اتفاقات سابقة بين روسيا وتركيا، تعهّدت الأخيرة مراراً بحلحلة ملف إدلب وفتح الطريق الدولي المغلق بين حلب واللاذقية، مقابل تعهدات روسية بإبعاد الأكراد عن مناطق التماس. إلّا أن عدم وفاء أنقرة بتعهّداتها من جهة، ورفض «قسد» الخروج من منبج وتل رفعت التي تنتشر قطع للجيش السوري قربهما، حالا دون تنفيذ الاتفاق.

وجاء التصعيد التركي سواءً عبر المسيّرات التي تطير على مدار الساعة لمراقبة المنطقة، أو عن طريق القصف المدفعي، بالتزامن مع تحرّكات عديدة موازية على الأرض. وتمثّل أول هذه التحرّكات في إغلاق معابر التهريب بين مواقع سيطرة «قسد» ومواقع سيطرة الفصائل التي تقودها تركيا في الشمال السوري، وأبرزها معبر الحمران، بوابة النفط السوري الذي تقوم «قسد» بتهريبه إلى مناطق نفوذ الفصائل و«هيئة تحرير الشام» في إدلب. كذلك، جرى إغلاق معبر جرابلس الحدودي مع تركيا، في وقت بدأت فيه قوات «قسد» عمليات تحصين لمواقعها، بالإضافة إلى تطبيق تعليمات خطة أمنية عاجلة تمنع التحرّكات المشوهة، وتحظر انتقال القياديين عبر آليات يمكن مطاردتها، وفق ما ذكرت مصادر ميدانية كردية في حديث إلى «الأخبار». وأوضحت المصادر أن تلك التعليمات شملت التخفّي والتحرك ليلاً على طرق آمنة، موضحةً أن الخطّة المشار إليها وضعتها قيادة «قسد» قبل نحو عامين، وتقوم بتطبيقها بين وقت وآخر تبعاً للتسخين التركي المتواتر.

وعلى الرغم من التصعيد التركي المستمرّ، لم تتلقَّ الفصائل التي تقودها تركيا أيّ تعليمات جديدة للاستعداد لأيّ معركة، ما يُرجّح استمرار انتهاج أنقرة عمليات الاستهداف الجوية عبر المسيّرات، والقصف المدفعي المتواتر، من دون التوغل البري الذي سيكون مكلفاً في ظلّ الرفض الروسي لهذه الخطوة، والأميركي أيضاً. وفي السياق، أعلنت وزارة الدفاع التركية، في بيان مقتضب نشرته أول أمس، أن قواتها المسلّحة «تمكّنت من تحييد 67 إرهابياً (تقصد قسد) بضرب مقارهم في منطقتَي تل رفعت ومنبج». وعلّلت الوزارة خطوتها بأنها جاءت ردّاً «على استهداف القواعد التركية شمالي سوريا قبل يومين». وفي المقابل، أصدرت «الإدارة الذاتية» بياناً مكرّراً من بيانات أصدرتها خلال عمليات تصعيد تركية سابقة في المنطقة، إلّا أنها ربطت التوتير هذه المرة بالتفاهمات التي تحاول موسكو وطهران خلقها بين دمشق وأنقرة، معتبرةً ذلك «في حال صحّته»، «خطراً كبيراً سيجعل الجميع أمام احتمالات جديدة سيئة للغاية في سوريا والمنطقة».

في هذا الوقت، يبدو أن التحرّكات الروسية الجوية المستمرّة والمكثّفة لرصد النشاط الأميركي الذي تعتبره موسكو مشبوهاً وهادفاً إلى عرقلة وضرب أيّ استقرار في سوريا، أثارت قلق الولايات المتحدة؛ إذ أعلنت القيادة المركزية الأميركية (سينتكوم)، في بيان، وضع «السرب 94 الجوي الذي يضمّ طائرات من نوع Raptor F22 تحت سلطة القيادة الأميركية الوسطى (الشرق الأوسط)، لتأمين التفوّق الجوي الأميركي في المنطقة». ويمثّل الإعلان خطوة تصعيدية أميركية جديدة بعد خطوات سابقة تضمّنت إدخال آليات ثقيلة، ومنظومات صاروخية عديدة، آخرها منظومة «هيمارس» التي قامت واشنطن بنشرها في محيط المواقع النفطية السورية. ويأتي ذلك فيما لا تزال الولايات المتحدة تلتزم الصمت حيال الهجمات التركية المستمرّة، وتتابع العمل على تحصين مواقع سيطرتها. ومن بين هذه المواقع، المناطق النفطية في الشمال الشرقي من سوريا، حيث أجرت مناورة قرب حقل «كونوكو» للغاز، وفي منطقة التنف التي تعمل على تحويلها إلى قاعدة ارتكاز وقيادة، تقود من خلالها فصائل عربية عديدة تابعة لها قرب الحدود العراقية. وتعود هذه التحرّكات إلى توقّع واشنطن تزايد الضغوط الميدانية على وجودها العسكري غير الشرعي في سوريا، خصوصاً أن رفض الوجود الأميركي يُعتبر إحدى أبرز النقاط التوافقية بين سوريا وتركيا وإيران وروسيا.

وفي وقت لم تتسرّب فيه أيّ معلومات دقيقة عن خريطة الطريق التي أعلن نائب وزير الخارجية الروسي والمبعوث الرئاسي الخاص إلى الشرق الأوسط وأفريقيا، ميخائيل بوغدانوف، إعدادها بخصوص تطبيع العلاقات بين أنقرة ودمشق، من المرتقب أن يتمّ طرحها خلال لقاء على مستوى نواب وزراء الخارجية على هامش اجتماع «مسار أستانا» في كازاخستان، والمقرّر الأربعاء المقبل. وفي هذا السياق، تُعتبر ثنائية الأكراد المدعومين من الولايات المتحدة والفصائل المدعومة من تركيا (بما فيها هيئة تحرير الشام) القضيّة الأبرز في المباحثات السورية - التركية، إذ من جهة، تتمسّك دمشق بخروج القوات التركية من سوريا وقطع تمويل ودعم الفصائل، في وقت تحاول فيه كلّ من موسكو وطهران الدفع نحو تعاون ينهي الملفّين معاً عبر إعادة سيطرة الحكومة السورية على الحدود.

يبدو أن التحرّكات الروسية الجوية المستمرّة والمكثّفة لرصد النشاط الأميركي الآرث قلق واشنطن (أ ف ب)

> كثّفت القوات التركية عمليات استهداف مواقع «قسد» في ريف حلب الشمالي الشرقي وتحديداً في تل رفعت ومنبج

بدأت رقعة الحرب في الأنسام. ليتجدّد الصراع في إقليم دارفور غربي البلاد (أ ف ب)

تقرير

كابوس دارفور يلفّ السودان تعدّد مبادرات... بلا آمال

مع اتّساع رقعة الحرب في السودان، واشتدادها في إقليم دارفور خصوصاً حيث بدأت تتّخذ منحًى شديد الخطورة، بدا مشهد الصراع الدائر في هذا البلد منذ شهرين ينفتح على سيناريوات أكثر قتامة. ليست الحرب الأهلية الشاملة مستبعدة منها. مع ذلك، لا يجد السودانيون بدّاً من تعليق آمال عريضة على مبادرات التفاوض المتعدّدة، في أن توقف نزيف الدماء في بلادهم وتضع حدّاً لمعاناتهم

الخرطوم ـ الأخبار

بينما فلّت مباحثات جدة بين الجيش السوداني وقوات «الدعم السريع»، والتي انطلقت بداية الشهر الماضي برعاية سعودية - أميركية، تراوح مكانها، بسبب تعنّت الطرفين في الالتزام بوقف إطلاق النار تمهيداً للوصول إلى اتفاق شامل، برزت إلى السطح مبادرة أفريقية أعلنت عنها «الهيئة الحكومية للتنمية في شرق أفريقيا - إيغاد»، سعياً إلى تحقيق هدنة تتضمّن فتح ممرّات إنسانية خلال أسبوعين، والشروع في إدارة حوار وطني خلال ثلاثة أسابيع لوضع حدّ للحرب المشتعلة منذ الـ15 من نيسان. إلّا أنه بعد أيام قليلة من انعقاد اجتماع اللجنة الرباعية لـ«إيغاد» في جيبوتي، بمشاركة رؤساء إثيوبيا وجنوب السودان وجيبوتي وكينيا، إلى جانب نائب رئيس «مجلس السيادة» السوداني مالك عقار، بدأت رقعة الحرب في الاتّساع، ليتجدّد الصراع في إقليم دارفور غربي البلاد، حيث شهدت مدينة الجنينة، عاصمة ولاية غرب دارفور، قتالاً دموياً راح ضحيته المئات وشُرّد الآلاف بعد حرق وتدمير مساكنهم، قبل أن يبلغ القتال ذروته باغتيال والي الولاية، خميس أبكر، وتتّخذ الأمور منحًى أكثر خطورة سيصعّب بلا ريب من مهمّة «إيغاد».

ومع إعلان الأخيرة عقد اجتماع جديد لقادة اللجنة الرباعية في أديس أبابا في غضون الأسبوع المقبل، تُبرز تساؤلات حول مدى قدرة المنظّمة على تحقيق اختراق في جدار الأزمة، بعدما عجزت عن ذلك الوساطة السعودية - الأميركية بكلّ ثقلها، فضلاً عن أثر تعدّد المبادرات أصلاً على مسار حلّ الأزمة. في هذا الإطار، يرى الكاتب والمحلّل السياسي، أنور سليمان، أن «تعدّد المبادرات ومنابر الحلول لا يصبّ في مصلحة تسوية الأزمة السودانية»، معتبراً أن «إيغاد، وبالرغم من أنها المنظّمة الإقليمية الأقرب إلى السودان ومشكلاته، ودولها تعدّ من أكثر الدول تضرّراً من استمرار الحرب، إلّا أن مبادرتها جاءت متأخّرة جدّاً». ويشير سليمان، في تصريح إلى «الأخبار»، إلى أن «إيغاد تمتلك خبرة واسعة في الشأن السوداني منذ أن تحوّل إعلان المبادئ الذي تمّ التوصل إليه عن طريقها في عام 1996، إلى أساس لتسوية الحرب في جنوب السودان، ولاتفاق السلام الشامل الذي أفضى إلى انفصال الجنوب في عام 2011»، مستدركاً بأن «الدبلوماسية الغربية والإقليمية، متمثّلة في شركاء وأصدقاء إيغاد، هي مَن تدير عمل المنظّمة من وراء الستار». ويعتقد سليمان أن «مباحثات جدة لا تزال هي الأوفر حظّاً بحكم ثقل الولايات المتحدة والسعودية»، مضيفاً أن «تعثّر هذه المباحثات، وعدم تحقيقها أيّ نجاح - ما أغرى "إيغاد" بالتدخّل -، لا يعود إلى فشل المنبر أو الوسطاء، بل سببه هو أن شروط التسوية الداخلية لم تنضج بعد».

ويسود اعتقاد وسط المراقبين بأن «إيغاد» ستواجه العديد من العقبات في سبيل سعيها إلى إيجاد حلول للأزمة السودانية، في ظلّ تمترس طرفي الصراع وراء مواقفهما، وإصرارهما على مواصلة القتال، من دون اكتراث للخسائر التي يتسبّب بها ارتفاع حدّة العنف واتّساع رقعته، والتي تفيد آخر إحصائيات الأمم المتحدة بوصولها إلى ما يقرب من 1000 قتيل من المدنيين، وأكثر من 2,2 مليون لاجئ ونازح. وفي ظلّ التحشيد الإعلامي الكبير من قِبَل الطرفين، يبدو التوصّل إلى تسوية أو اتفاق، أقلّه في المدى المنظور، شبه مستحيل، خصوصاً مع وجود تيّار واسع يقوده أنصار النظام السابق المؤيّدين للجيش، يرفض إبرام اتفاق مع قوات «الدعم السريع»، باعتبار أن أيّ تسوية معها ستجعلها شريكاً رئيساً في المشهد السياسي في مرحلة ما بعد الحرب.

ومن هنا، يعود سليمان بحديثه إلى بدايات الأزمة، معتبراً أن الصراع الجاري حالياً ليس طارئاً أو مفاجئاً؛ إذ إن التحضير له كان يَجري منذ وقت ليس بالقصير، مضيفاً أن الطرفين يحتاجان إلى زمن طويل، ومساعدة لتطوير قناعتهم بأن أهدافهم يمكن الوصول إليها سلمياً وبلا خسائر كبيرة مثلما يحدث الآن. ويلفت إلى أن كليهما لم يصلا بعد إلى مرحلة الجلوس على طاولة واحدة للحوار، فضلاً عن أن أعضاء وفديهما ليسوا من قادة الصفّ الأول الذين بإمكانهم اتّخاذ قرارات شجاعة للوصول إلى تسوية سريعة تُنهي الحرب.

اليمن

الجنوب على عتبة الانهيار: «الانتقالي» يجد فرصة الانفصال

لقمان عبد الله

كشفت وسائل إعلام إماراتية أن «المجلس الانتقالي الجنوبي» جادٌّ إزاء مسألة إسقاط حكومة معين عبد الملك التي يتقاسمها مناصفةً مع المكونات الأخرى، وأن في مستطاعه، وفق مصادر، اتّخاذ خطوات قوية، وخصوصاً بعدما أرفق تصعيده ضدّ «الحكومة الشرعية» بإجراء تمثّل في منْعه تحويل إيرادات المحافظات الجنوبية إلى المصرف المركزي. ولم تستثنِ الاتهامات بالمسؤولية عن الانهيار الاقتصادي والفساد المستشري في المؤسسات الرسمية، رئيس «المجلس الرئاسي»، رشاد العليمي، وبقية أعضاء مجلسه والقوى السياسية اليمنية القريبة، فيما يرى مراقبون أن الصراع في جنوب اليمن يمثّل انعكاساً لتضارب النفوذ بين السعودية والإمارات. ويبدو أن الصراع بين وكلاء كلٍّ من الرياض وأبو ظبي سينتقل إلى أشكال أكثر تعقيداً، وسط حديث عن اعتزام «الانتقالي» اللجوء إلى «إدارة الأوضاع في المناطق التي يسيطر عليها بنفسه، ومن دون أيّ شراكة مع قوى المسيّرات التي تطير على مدار الساعة لمراقبة المنطقة، أو عن طريق القصف المدفعي، بالتزامن مع تحرّكات عديدة موازية على الأرض. وتمثّل أول هذه التحرّكات في إغلاق معابر التهريب بين مواقع سيطرة «قسد» ومواقع سيطرة الفصائل التي تقودها تركيا في الشمال السوري، وأبرزها معبر الحمران، بوابة النفط السوري الذي تقوم «قسد» بتهريبه إلى مناطق نفوذ الفصائل و«هيئة تحرير الشام» في إدلب. كذلك، جرى إغلاق معبر جرابلس الحدودي مع تركيا، في وقت بدأت فيه قوات «قسد» عمليات تحصين لمواقعها، بالإضافة إلى تطبيق تعليمات خطة أمنية عاجلة تمنع التحرّكات المشوهة، وتحظر انتقال القياديين عبر آليات يمكن مطاردتها، وفق ما ذكرت مصادر ميدانية كردية في حديث إلى «الأخبار». وأوضحت المصادر أن تلك التعليمات شملت التخفّي والتحرك ليلاً على طرق آمنة، موضحةً أن الخطّة المشار إليها وضعتها قيادة «قسد» قبل نحو عامين، وتقوم بتطبيقها بين وقت وآخر تبعاً للتسخين التركي المتواتر.

وعلى الرغم من التصعيد التركي المستمرّ، لم تتلقَّ الفصائل التي تقودها تركيا أيّ تعليمات جديدة للاستعداد لأيّ معركة، ما يُرجّح استمرار انتهاج أنقرة عمليات الاستهداف الجوية عبر المسيّرات، والقصف المدفعي المتواتر، من دون التوغل البري الذي سيكون مكلفاً في ظلّ الرفض الروسي لهذه الخطوة، والأميركي أيضاً. وفي السياق، أعلنت وزارة الدفاع التركية، في بيان مقتضب نشرته أول أمس، أن قواتها المسلّحة «تمكّنت من تحييد 67 إرهابياً (تقصد قسد) بضرب مقارهم في منطقتَي تل رفعت ومنبج». وعلّلت الوزارة خطوتها بأنها جاءت ردّاً «على استهداف القواعد التركية شمالي سوريا قبل يومين». وفي المقابل، أصدرت «الإدارة الذاتية» بياناً مكرّراً من بيانات أصدرتها خلال عمليات تصعيد تركية سابقة في المنطقة، إلّا أنها ربطت التوتير هذه المرة بالتفاهمات التي تحاول موسكو وطهران خلقها بين دمشق وأنقرة، معتبرةً ذلك «في حال صحّته»، «خطراً كبيراً سيجعل الجميع أمام احتمالات جديدة سيئة للغاية في سوريا والمنطقة».

في هذا الوقت، يبدو أن التحرّكات الروسية الجوية المستمرّة والمكثّفة لرصد النشاط الأميركي الذي تعتبره موسكو مشبوهاً وهادفاً إلى عرقلة وضرب أيّ استقرار في سوريا، أثارت قلق الولايات المتحدة؛ إذ أعلنت القيادة المركزية الأميركية (سينتكوم)، في بيان، وضع «السرب 94 الجوي الذي يضمّ طائرات من نوع Raptor F22 تحت سلطة القيادة الأميركية الوسطى (الشرق الأوسط)، لتأمين التفوّق الجوي الأميركي في المنطقة». ويمثّل الإعلان خطوة تصعيدية أميركية جديدة بعد خطوات سابقة تضمّنت إدخال آليات ثقيلة، ومنظومات صاروخية عديدة، آخرها منظومة «هيمارس» التي قامت واشنطن بنشرها في محيط المواقع النفطية السورية. ويأتي ذلك فيما لا تزال الولايات المتحدة تلتزم الصمت حيال الهجمات التركية المستمرّة، وتتابع العمل على تحصين مواقع سيطرتها. ومن بين هذه المواقع، المناطق النفطية في الشمال الشرقي من سوريا، حيث أجرت مناورة قرب حقل «كونوكو» للغاز، وفي منطقة التنف التي تعمل على تحويلها إلى قاعدة ارتكاز وقيادة، تقود من خلالها فصائل عربية عديدة تابعة لها قرب الحدود العراقية. وتعود هذه التحرّكات إلى توقّع واشنطن تزايد الضغوط الميدانية على وجودها العسكري غير الشرعي في سوريا، خصوصاً أن رفض الوجود الأميركي يُعتبر إحدى أبرز النقاط التوافقية بين سوريا وتركيا وإيران وروسيا.

وفي وقت لم تتسرّب فيه أيّ معلومات دقيقة عن خريطة الطريق التي أعلن نائب وزير الخارجية الروسي والمبعوث الرئاسي الخاص إلى الشرق الأوسط وأفريقيا، ميخائيل بوغدانوف، إعدادها بخصوص تطبيع العلاقات بين أنقرة ودمشق، من المرتقب أن يتمّ طرحها خلال لقاء على مستوى نواب وزراء الخارجية على هامش اجتماع «مسار أستانا» في كازاخستان، والمقرّر الأربعاء المقبل. وفي هذا السياق، تُعتبر ثنائية الأكراد المدعومين من الولايات المتحدة والفصائل المدعومة من تركيا (بما فيها هيئة تحرير الشام) القضيّة الأبرز في المباحثات السورية - التركية، إذ من جهة، تتمسّك دمشق بخروج القوات التركية من سوريا وقطع تمويل ودعم الفصائل، في وقت تحاول فيه كلّ من موسكو وطهران الدفع نحو تعاون ينهي الملفّين معاً عبر إعادة سيطرة الحكومة السورية على الحدود.

تعترف حكومة عبد الملك بالتقصير في أدائها الاقتصادي والخدمي (أ ف ب)

> رفضت السعودية طلب عبد الملك إعادة فرض قيود على ميناء الحديدة

الذي أعلن تعليق إرسال إيرادات المحافظة إلى «المركزي»، واعداً باستئناف مدّ محطّة «الرئيس» في عدن بالوقود اللازم.

في الوقت نفسه، تعترف حكومة عبد الملك بالتقصير في أدائها الاقتصادي والخدمي، مشيرة إلى أن الاقتصاد اليمني يواجه تداعيات قاسية، وتقلّصاً في حجم الإيرادات إلى مستوى كارثي، عازية ما تقدّم إلى استهداف موانئ النفط من جانب حكومة صنعاء ووقف تصدير النفط، فضلاً عن تحويل الحكومة تحمّل مسؤولية تأمين الوقود، على رغم أن محافظة عدن تشهد انهياراً في منظومة الكهرباء وتزايداً في ساعات انقطاع التيار، إذ يصل إلى 18 ساعة في اليوم، جرّاء نفاد الوقود وتوقّف منحة المشتقات النفطية السعودية، وعجز حكومة عبد الملك عن توفير الوقود. ولكن هذه الأخيرة لم تتأخر في الردّ على إجراءات المحافظ، فأصدرت «الهيئة الوطنية العليا لمكافحة الفساد» بياناً طالبت فيه لمس بالكشف عن مصير سبعة ملايين دولار تم التصرّف بها لمصلحة شركة أجنبية مقابل توريدها مولدات كهربائية، وهو ما لم يحصل، على رغم مرور عام على توقيع الاتفاق.

غير أن الصراع لم يقتصر على حكومة عبد الملك، بل تعدّاه ليشمل الكثير من المكونات الجنوبية، ولا سيما تلك التي تدعو إلى الانفصال. فقد أصدر «الانتقالي» بياناً سياسياً بعد اجتماع هيئته الرئاسية، وجّه فيه إلى الحكومة ورئيسها عدّة تهم تتعلّق بـ«الفساد والإفقار المتعمّد للمواطن، والتآمر على لقمة وخدمات الإنسان الجنوبي وقضيته الوطنية»، وبأنها «فاقدة لأحساس بالمسؤولية، وأفرغت الخزائن من الأموال». واللافت في البيان، توجيهه تحية لقرار محافظ عدن استخدام الإيرادات لتغطية المتطلّبات الخدمية في المدينة التي «تعيش وضعاً كارثياً ماسوياً من دون كهرباء في صيف مميت، وغلاء الأسعار وتردّي الخدمات». كذلك، دعا البيان، كل المحافظات الجنوبية والشرقية إلى اتخاذ القرار نفسه، وهو ما استجاب له محافظ شبوة، بن الوزير، الاستيراد إلى ميناء الحديدة، وإيقاف حكومة «الإنقاذ» استيراد غاز مأرب. وكانت صادرات النفط في اليمن قد توقّفت اعتباراً من تشرين الأول من العام الماضي، إثر هجمات شنّها سلاح المسيّرات التابع لحركة «أنصار الله» على عدد من الموانئ النفطية الخاضعة لسيطرة «الشرعية» في محافظتَي حضرموت وشبوة. كذلك، تقدّر حكومة عبد الملك أنها فقدت نصف إيراداتها الضريبية والجمركية، التي كانت تحصل عليها قبل رفع القيود عن ميناء الحديدة مطلع العام الجاري، ما أدى إلى تراجع أداء ميناء عدن الاستراتيجي وموانئ جنوب اليمن. وعلى هذه الخلفية، طالب عدد من المسؤولين، بمن فيهم عبد الملك، السعودية، بإعادة فرض القيود والحصار على ميناء الحديدة، ردّاً على إصدار حكومة صنعاء تعميماً للتجار لحصر الاستيراد بالمحافظات الشمالية، إلّا أن الطلب المتقدّم قوبل بالرفض من جانب المملكة، خشية ردّ فعل «أنصار الله».

إيران

رئيسي يختتم جولته اللاتينية: توثيق الاتحاد ضدّ أميركا

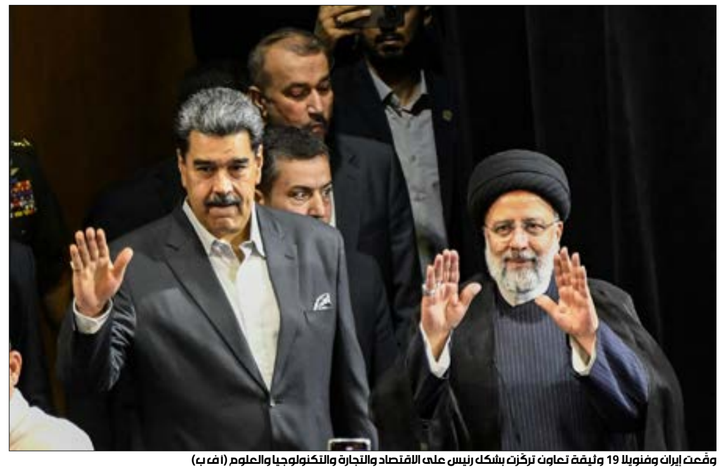
وقعت إيران وفنزويلا 19 وثيقة تعاون تركّزت بشكل رئيس على الاقتصاد والتجارة والتكنولوجيا والعلوم (أ ف ب)

طهران - **محمد خواجوني**

انتهت جولة الرئيس الإيراني، إبراهيم رئيسي، على ثلاث دول في أميركا اللاتينية، هي فنزويلا ونيكاراغوا وكوبا، والتي يمكن اعتبارها مؤشراً إلى مساعي طهران لمزيد من الحضور في «الحديقة الخلفية لأميركا»، وترسيخ العلاقات مع البلدان التي تخضع للعقوبات الأميركية. ورافق الرئيس الإيراني في جولته التي اختتمها مساء الخميس، كلّ من وزير الخارجية حسين أمير عبد اللهيان، ووزير الدفاع وإسناد القوات المسلحة أمير أشتياني، ووزير النفط جواد أوجي، ووزير الصحة والعلاج بهرام عين اللهي؛ وفيها تمّ التوقيع على ما مجموعه 28 وثيقة تعاون في مختلف المجالات، بين إيران والدول الثلاث التي زارها رئيسي.

شكّلت فنزويلا، الحليف الأوثق لإيران في أميركا اللاتينية، أولى محطّات جولة رئيسي، حيث وقّع الجانبان 19 وثيقة تعاون تركّزت بشكل رئيس على الاقتصاد والتجارة والتكنولوجيا والعلوم، فيما تقرّر، وفق ما أعلن الرئيس الإيراني في أعقاب لقائه نظيره الفنزويلي نيكولاس مادورو، رفع قيمة التبادل التجاري بين بلديهما من 3 مليارات دولار سنويّاً، إلى 20 ملياراً. وكان البلدان وقّعا، أثناء زيارة مادورو لطهران العام الماضي، اتّفاقاً للتعاون الشامل مدّته 20 عاماً. وتأكيداً منه على العلاقات الوثيقة التي تجمعهما، وصف رئيسي فنزويلا بالبلد «الصديق»، وبأن العلاقات بينهما «استراتيجية»، مذكّراً بأن لهما «أعداء مشتركين». ومن جهته، قال مادورو إن إيران «إحدى القوى العلمية والتكنولوجية الصاعدة في العالم»، وإن بلاده «تمدّ يدها نحوها». ومن فنزويلا، انتقل رئيسي إلى نيكاراغوا، المحطّة الثانية في جولته، حيث التقى نظيره دانييل أورتيغا، وجرى التوقيع على ثلاث وثائق للتعاون بين البلدين، تغطّي المجالات القضائية والاقتصادية والتجارية والتجهيزات والمستلزمات الطبية. وفي كوبا، المحطة الثالثة والأخيرة، تمّ التوقيع على 6 وثائق تعاون في المجالات القضائية والتعاون السياسي الشامل والعلاقات الجمركية والتعاون في مجال تكنولوجيا المعلومات، بحضور رئيسي ونظيره الكوبي ميغيل دياز كانيل.

ولا مبالغة في القول إن الولايات المتحدة وعقوباتها، شكّلتا الدافع المشترك والمحفّز الأول لتقارب البلدان الأربعة، على أمل أن يحدّ التعاون في ما بينها من الأضرار التي تخلّفها العقوبات، ويزيد من قدرتها على الصمود في وجه الضغوط. ومن جهتها، لم تخفِ واشنطن استياءها من جولة رئيسي، إذ قال الناطق باسم الخارجية، ماثيو ميلر، ردّاً على سؤال عن موقف بلاده من جولة الرئيس الإيراني: «لقد أعلنّا صراحةً قلقنا من الأنشطة الإيرانية، وليس مستغرَباً أن تقيم الدول المذكورة علاقات دبلوماسية مع إيران»، فيما كان منسّق الاتصالات الاستراتيجية في مجلس الأمن القومي، جون كيربي، سبقه إلى القول إن «الولايات المتحدة لا تقول لدول أميركا اللاتينية مع من تتواصل». مضيفاً: «(إنّنا) قلقون بطبيعة الحال من السلوك الإيراني المزعزع للاستقرار، وسنواصل اتّخاذ الإجراءات لمواجهة هذا السلوك». وتقرّ أوساط سياسية وتخصّصية أميركية، بتراجع نفوذ واشنطن في أميركا اللاتينية، في موازاة زيادة تحرّكات منافسيها في المنطقة. وفي هذا الإطار، تطرّقت صحيفة «وول ستريت جورنال» إلى الأحداث الدبلوماسية في الدول الجارة لأميركا، قائلةً إن «أخباراً عن سارّة تصل من أميركا اللاتينية إلى الولايات المتحدة، بيد أن ردّة فعل إدارة بايدن تجاهها منفعلة». وأشارت على وجه التحديد إلى الأنشطة المكثّفة للصين وروسيا وإيران في هذه المنطقة، معتبرةً إيّاها «عاملاً يمسّ بالأمن الأميركي». ومن جهته، رأى إيمانويل أوتولنغي، كبير محلّلي «مؤسّسة الدفاع عن الديموقراطية» (FDD)، أن الهدف من جولة الرئيس الإيراني على أميركا اللاتينية «يتمثّل في توثيق الاتحاد ضدّ الولايات المتحدة في منطقة أميركا اللاتينية، وتعزيز التوجّهات في مجال بناء عالم متعدّد الأقطاب». وتابع أن «دولاً مثل الصين وإيران وروسيا، في هيكلية النظام المتعدّد الأقطاب في العالم، تنمو في محاذاة إضعاف قوّة الولايات المتحدة»، لافتاً إلى أن طهران تُعتبر نفسها مع حلفائها في أميركا اللاتينية جزءاً من «جبهة المقاومة»، و«ينظّمون سياساتهم لمواجهة عقوبات الولايات المتحدة».

وكان لجولة رئيسي على أميركا اللاتينية انعكاس وصدى واسعان في الأوساط السياسية والإعلامية في إيران والبلدان التي زارها. وفي هذا المجال، قال هادي أعلمي فريمان، المختصّ في شؤون أميركا اللاتينية، في حوار مع وكالة الأنباء الرسمية الإيرانية، إن العلاقات بين الجانبين «هُمشت على مدى ثماني سنوات من حكومة حسن روحاني التي ركّزت على خطّة العمل الشاملة المشتركة (الاتفاق النووي)»، مضيفاً: «الآن، وعلى خلفية العقوبات، فإن إيران والبلدان التي زارها الرئيس الإيراني في أميركا اللاتينية، تشترك في الرؤى، ما أسهم في تحقيق تقارب وتماثل في التوجّهات بيننا وبين هذه الدول». وبحسب وكالة «تسنيم» القريبة من «الحرس الثوري»، فإن «جولة رئيسي، والتي جاءت بعد زمن قصير من زيارة مادورو للسعودية وإحياء العلاقات بين الرياض وطهران، مؤشّر آخر إلى هزيمة المشروع الأميركي الرامي إلى عزل الدول التي تخضع للعقوبات. إن القدرة على بناء اتحادات استراتيجية ونَيْل دعم الحلفاء في الميادين الدولية، تُعدّ جزءاً من رسائل جولة رئيسي على أميركا اللاتينية».

وانسحبت هذه الأجواء على الإعلام في الدول المضيفة، إذ وصف الموقع الإلكتروني الرسمي للحكومة الفنزويلية، إيران، بأنها «قوّة عظمى متحرّرة من التدخّلات الأجنبية»، وبأن «توقيع اتّفاقات بين طهران وكراكاس يمثّل ضربة موجعة للرأسمالية الإمبريالية، فضلاً عن كونه توقيعاً على وثيقة صداقة لا تزول». كذلك، تناول موقع «كوبا ديبايت» (Cubadebate) زيارة الرئيس رئيسي لهافانا، واعتبرها «مؤشّراً إلى الحالة المميّزة للعلاقات السياسية - الدبلوماسية بين إيران وكوبا، وكذلك إرادة كلّ منهما لتحسين العلاقات الاقتصادية والتجارية». وجاء في تقرير بثّه الموقع الإلكتروني لقناة «تيلي سور» (telesurtv) التلفزيونية الفنزويلية، أن «العلاقات مع هذه المنطقة من العالم التي تسعى للخروج من دائرة نفوذ هيمنة الولايات المتحدة، تكون تتثبّت مع زيارة الرئيس إبراهيم رئيسي ووزير خارجيته حسين أمير عبد اللهيان. والمحور الرئيس لهذه الزيارة يتمثّل في تعزيز العلاقات السياسية مع كل من كوبا ونيكاراغوا وفنزويلا التي تتّفق في الرؤى حول قضايا أساسية على الصعيد الدولي، من مثل دعم فلسطين وسوريا واليمن والعراق والامتناع عن الانخراط في سياسة العقوبات المفروضة على روسيا على خلفية الحرب الأوكرانية».

> **لا مبالغة في القول إن الولايات المتحدة وعقوباتها، شكّلتا الدافع المشترك والمحفّز الأول لتقارب البلدان الأربعة**

استراحة

كلمات متقاطعة 4336

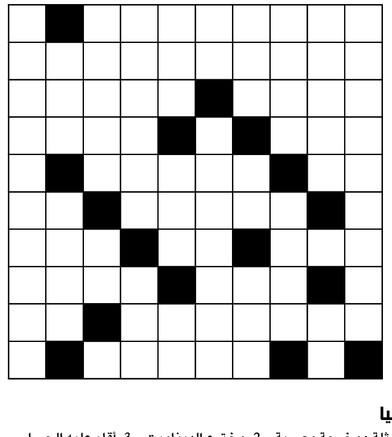

أفقيا

1- ممثلة ومخرجة مصرية – 2- مخترع الديناميت – 3- أقام عليه الحساب – من أنواع المناخ – 4- لعق – إسم تايلند قديماً – 5- والدة – القدرة والطاقة – 6- مهندس بيزنطي بنى قصر الخوَرْنَق – ضجر – 7- مبثاق – سرب من الطيور – آلة من حديد تستعمل لقلع الحجارة – 8- علو – ماركة ساعات – 9- محرّرة فرنسا – من الحبوب – 10- بلدة لبنانية في قضاء صيدا

عمودياً

1- دولة أفريقية – 2- أعمال شعرية طويلة – للمساحة – 3- من عواصم المسيحية في القرون الأولى – من أدوات الإسكافي – 4- قتال – حرف نصب – شيّع المسافر – 5- للتفسير – من الأحجار الكريمة – 6- تحسّر وأسف – حرف أبجدي – عبودية – 7- قصر الإسرة البريطانية المالكة – عكسها بيت النمل – 8- حكاية – إسم موصول – 9- شُفي من المرض – بنج – 10- صحافي لبناني راحل

حلول الشبكة السابقة

أفقيا

1- ساموراي – أمّ – 2- جرش – الطالح – 3- ناموس – عجرم – بو – 5- با – واز – أحد – 6- وتر – جلاد – 7- سلام – جنّر – 8- زَب – أناسب – 9- ينام – مداري – 10- بتدين اللقش

عمودياً

1- سجن أبو غريب – 2- ارارات – بنت – 3- مشمش – رس – إد – 4- واو – لامي – 5- رأس داشان – 6- ال – هزّ – ماما – 7- بُطعم – سدل – 8- اج – الجبال – 9- الريحان – رق – 10- محمود درويش

sudoku 4336

			4		6		8	2
3	2	5		8			4	
			9		3			5
5	6	4					9	
			6	9	4		2	
						4		6
9							3	
		2	7		8		6	
	3		2			8		7

شروط اللعبة

هذه الشبكة مكوّنة من 9 مربعات كبيرة وكل مربع كبير مقسّم إلى 9 خانات صغيرة. من شروط اللعبة وضع الأرقام من 1 إلى 9 ضمن الخانات بحيث لا يتكرر الرقم في كل مربع كبير وفي كل خط أفقي أوعمودي.

حل الشبكة 4335

3	7	9	4	5	2	8	1	6
8	1	2	3	6	9	5	7	4
4	5	6	8	7	1	2	3	9
7	2	5	1	9	4	3	6	8
1	9	3	6	2	8	4	5	7
6	8	4	5	3	7	1	9	2
5	4	7	9	8	3	6	2	1
9	6	8	2	1	5	7	4	3
2	3	1	7	4	6	9	8	5

مشاهير 4336

11	10	9	8	7	6	5	4	3	2	1

سياسي ووزير إقتصاد في عهد الرئيس معمر القذافي. عيّن سفيراً في الهند

5+4+1+5+2+10+11 = خلاف السفلي ■ 9+2+8+4+8+3+6 = موزّع البريد ■ 4+7 = للنداء

إعداد نعوم مسعود

حل الشبكة الماضية: **برنارد مادوف**

تقرير

تبّون في روسيا: نهاية زمن «عدم الانحياز»؟

زيارة تبون لروسيا «تخرج من إطار التعاون الاقتصادي إلى التعاون الاستراتيجي» (أ ف ب)

الجزائر ـ **أصيل منصور**

يرى خبراء جزائريون في الاقتصاد والعلاقات الدولية أن الخطوة التي قادت الرئيس الجزائري، عبد المجيد تبون، إلى عقد اتفاق شراكة مع روسيا، وطلب التعجيل بالانضمام إلى مجموعة "البريكس"، تدخل في إطار التجاذبات السياسية والاقتصادية الكبرى بين "المعسكرَين الغربي والشرقي"، والتي تفرض اليوم تشكّل عالم جديد متعدّد الأقطاب، لا تجد البلدان، وخاصة النامية منها، بدّاً من تقوية مكانتها داخله.

وحلّ تبون، الثلاثاء الماضي، في موسكو في زيارة دولة تلبيةً لدعوة من نظيره الروسي، فلاديمير بوتين، اندرجت في إطار تعزيز التعاون بين البلدين. واستقبل بوتين الرئيس الجزائري، رسمياً في قصر الكرملين، حيث أكد تبون، خلال المحادثات الثنائية، "(أنّنا) متّفقون بشأن الوضع الدولي المضطرب جدّاً، ولذا نريد التعجيل في انضمامنا إلى تجمّع البريكس لما فيه من فائدة كبيرة لاقتصادنا". وتُوّجت الزيارة بالتوقيع على "إعلان الشراكة الاستراتيجية المعمّقة" بين البلدين، بالإضافة إلى اتفاقيات ومذكّرات تفاهم عدّة وبرامج عمل بين الحكومتَين الجزائرية والروسية، قبل أن يشارك تبون كضيف شرف في أعمال "المنتدى الاقتصادي الدولي" في مدينة سان بطرسبورغ الروسية.

هذا التقارب بين الجزائر وروسيا، والذي يُجري في ظروف جيواستراتيجية غير مسبوقة على خلفية الحرب الأوكرانية - الروسية وما سبّبته من انقسامات وتجاذبات على مستوى العالم - جعلت الوقوف في موقف "عدم الانحياز" أكثر صعوبة، وخصوصاً في ظلّ تضارب المصالح الدولية التي لم تَعُد تَقبل القسمة على اثنَين. يطرح سؤالاً عمّا إذا كانت الجزائر قد اختارت بصفة قطعية معسكرها؟ بحسب الخبير الجزائري في العلاقات الدولية والدبلوماسية والاقتصاد، فريد بن يحيى، فإن زيارة تبون لروسيا "تخرج من إطار التعاون الاقتصادي إلى التعاون الاستراتيجي". ويوضح بن يحيى، في حديث إلى "الأخبار"، أن ذلك "يظهر جلياً من خلال تشديد الرئيس الجزائري على ضرورة الانضمام إلى مجموعة "بريكس"، في إطار التوجّه نحو عالم متعدّد الأقطاب، وهو الأمر الذي صار مسلّماً به حتى في الدول الغربية نفسها"، مضيفاً إن هذه الأخيرة "تعترف بأن التقدم سيكون مستقبلاً في الشرق أكثر منه في الغرب، بسبب ما يعانيه الغرب من نسبة نموّ منخفضة، وعدم قدرة الدول الأوروبية على التصدير خارج أوروبا، والتضخم، والعجز المالي وخاصة في إسبانيا والبرتغال وغيرهما"، فضلاً عن "مشاكل داخلية واجتماعية أخرى متعدّدة تشهدها الدول الأوروبية".

كما أن ما يسمّيه بن يحيى "التفكك الغربي" راجع، بحسبه، أيضاً، إلى "كون أميركا أصبحت لا تعتبر أوروبا حليفاً، لكنها تنظر إلى الأوروبي كمواطن من الدرجة الثانية...". ويعرب عن اعتقاده بأن "الغرب يعي بأن نهاية الدولار، كعملة مهيمنة على الأورو وبي والانضمام إلى "بريكس"". ومما عجّل في ما يصفه بن يحيى بـ"استيقاظ العالم"، "عوامل عدّة، أهمّها الحرب الأوكرانية، وقبلها كوفيد 19، بما أكد أن الكثير من الشركات تسعى إلى السيطرة على شعوب العالم بما فيها الشعوب الغربية". في المقابل، فإن ما يسمّيه "المعسكر الشرقي"، وعلى رغم أنه يستفيد من العقود التجارية وتسويق منتجاته، إلا أنه "لا يحطّم البلدان داخلياً مثلما يفعل المعسكر الغربي"، كما يقول، مضيفاً إن "هناك فلسفة وفكراً جديدَين ينتشران في العالم". بناءً عليه، يفسّر بن يحيى تصريح تبون بأن "أمن الجزائر بين يدَي روسيا"؛ فهذا "يُعدّ حلفاً استراتيجياً، مثلما هي الحال مع بيلاروسيا، وإيران، وكوريا الشمالية، التي زوّدتها روسيا بأسلحة متطورة جدّاً للدفاع عن نفسها"، متوقعاً إبرام عقود بين الجزائر وروسيا "لتزويد الأولى بأسلحة متطوّرة لمواجهة التهديدات". مع ذلك، ينفي خروج الجزائر من مربّع عدم الانحياز، مبيّناً أن "العالم المتعدّد الأقطاب يعني عالماً جديداً لعدم الانحياز، فالمصطلح الأخير يعني عدم التدخّل في شؤون دول أخرى"، محمّلاً الولايات المتحدة مسؤولية اندلاع الحرب الأوكرانية – الروسية، على خلفية "أطماع التوسّع والتقسيم لديها". وهذا، ما يعترف به "أميركيون يُضاذون سياسة الولايات المتحدة"، وبالتالي، فإن "هذه التكتلات الجديدة تُجنّب البشرية كارثة".

من جهته، يرى الخبير الاقتصادي، ناصر سليمان، أن "المتغيّرات العالمية اليومية تفرض بعض المفاهيم، ومنها وجود قطبين يُعدّان امتداداً تاريخياً للمعسكرَين الغربي والشرقي". وعن انضمام الجزائر المحتمل إلى مجموعة "بريكس"، يقول سليمان، لـ"الأخبار"، إن "الجزائر لاقت الترحيب المبدئي، لأن أفريقيا صارت منطقة نفوذ تتصارع عليها كبرى الدول، ويعتبرها الاتحاد الأوروبي ملكية له، فيما الدول المتكتّلة في "بريكس" تعتبر بدورها منطقة شمال أفريقيا جزءاً من هذا الصراع، وانضمام الجزائر إليها يفيدها كثيراً". "صحيح أن الاقتصاد الجزائري لا يزال ضعيفاً، ولا ينافس الاقتصاد الصيني، مثلاً"، كما يُذكّر، إلا أنه يعتقد بأن "المصلحة بين الطرفَين مشتركة، كون أفريقيا منطقة جاذبة للقوى الكبرى، وتتنافس على التوسّع فيها جميع البلدان والأطراف، ومنها الكيان الصهيوني". وعن حظوظ الجزائر في الانتماء بمجموعة "بريكس" خلال قمة آب المقبل، يصف سليمان هذه الحظوظ بـ"الكبيرة"، "إلا إذا فُرضت شروط قاسية للانضمام، أو صُمّت بلدان أخرى تنتظر بدورها، مثل مصر، والسعودية، وغيرهما".

> **ينفي مراقبون خروج الجزائر من مربّع عدم الانحياز، مبيّنين أن «العالم المتعدّد الأقطاب يعني عالماً جديداً لعدم الانحياز»**

وفيات

بمزيد من الرضى والتسليم ننعي اليكم فقيدتنا الغالية المرحومة

الحاجة رفيقة حسن فرحات

أرملة المرحوم المربي مصطفى محمود فران

أخوتها المرحوم نجيب والأستاذ علي فرحات

أولادها الدكتور محمد، علي، الحاج حسن، الدكتور حسين، حسان، المحامي غسان والمهندس جمال

بناتها الهام زوجة الأستاذ حسن فواز، فاطمة زوجة الأستاذ فواز دباجة، سلمى زوجة السيد عماد بلوط، نجاة أرملة المرحوم الأستاذ فريد مقلد، هناء زوجة السيد وليد الرفاعي، رجاء أرملة المرحوم المهندس فؤاد قاسم وصباح زوجة السيد يوسف حيدر

تتلى صورة المباركة الفاتحة عن روحها الطاهرة الساعة الخامسة والنصف عصر اليوم السبت 17 حزيران في حسينية الرجال في بلدة تبنين.

وتقام ذكرى مرور ثلاثة ايام على وفاتها غداً الأحد 18 حزيران الساعة العاشرة صباحاً في حسينية الرجال تبنين.

تقبل التعازي في بيروت يوم الأثنين 19 حزيران 2023 في مقر جمعية التخصص والتوجيه العلمي، الجناح، قرب مركز امن الدولة، من الساعة الرابعة حتى السابعة مساءً.

للفقيدة الرحمة ولكم من بعدها طول البقاء

الأسفون آل فران، فرحات، فواز، دباجة، بلوط، مقلد، الرفاعي، قاسم، حيدر، وعموم أهالي تبنين وبرعشيت.

إعلانات رسمية

إعلان قضائي

تدعو محكمة الغُرفة الابتدائية المدنية في النبطية برئاسة القاضي المُكلف أحمد مزهر وعضوية القاضيين ليلى الخراط وسيرينا صفير

سنداً للمادة 3 من القانون 82/16 إبلاغ المُستدعى ضدهم: جعفر علي أسعد ومنى حسين أسعد وعبدالله ورضا ومحمد وزينب وحسين علي أسعد ورندلى سعدالله عبدالله وغادة حسين حمود وزهره وأحمد وعباس ومحمد إبراهيم أسعد وفاطمة وإبراهيم ورشا حسين أسعد وفاطمة وإبراهيم ورشا ومنى حسين عبدالله المجهولي محل الإقامة.

الحُضور إلى قلم المحكمة لاستلام نسخة عن الإستدعاء ومربوطاته والمُقدم من المُستدعي: حسن أحمد خشيش بوكالة المُحامي ماجد صبرا بموضوع: إزالة شيوع للعقار /427/ منطقة الخيام العقارية والمُسجل برقم أساس 293/ش/2022 واتخاذ محل الإقامة ضمن نطاق المحكمة والجواب خلال عشرين يوماً تلي النشر أو توكيل مُحام حيث يُعد مكتبه مقاماً مُختاراً لكم أينما وُجد هذا المكتب وإلا سيتم إبلاغكم بقية الأوراق والقرارات بواسطة التعليق على باب ردهة المحكمة.

رئيس القلم

فاطمة فحص

تدعو الهيئة الإدارية لرابطة خريجي الجامعات والمعاهد الناطقة باللغة الألمانية إلى جمعية عامة لانتخاب هيئة إدارية جديدة. وذلك في الساعة الحادية عشرة قبل ظهر يوم السبت في 8 تموز 2023 في بيروت - الحمرا الكنيسة الإنجيلية الألمانية في بيروت (Gemeinde Evangelische zu Beirut)

وفي حال عدم اكتمال النصاب في الجلسة الأولى تدعى الجمعية العامة إلى جلسة ثانية في المكان ذاته في تمام الساعة الواحدة ظهراً إلى الساعة الثالثة بعد الظهر من اليوم ذاته حيث يكون النصاب قانونياً من حضر من أعضاء الهيئة العامة.

تقدم الترشيحات إلى أمين السر المهندس فيصل حجازي على العنوان التال faysal.hijazi@gmail.com

الهاتف 9613773016.

يقفل باب الترشيح قبل أسبوع من تاريخ انعقاد الجلسة الأولى.

الرئيس أمين السر

سمية الخراط فيصل حجازي

البلاد

مقابلة | أجراها خليل كوثراني

تعرّف رباب عبد الهادي عن نفسها بأنها ناشطة (مناضلة) حصّلت لقب الدكتوراه الأكاديمي كيما تؤخذ على محمل الجد ويكون صوتها أكثر تأثيراً. في السياق هذا، ومن الخلفية تلك، تواصل جهدها في مشروع «تدريس فلسطين»، وهي تحاجّ، في اهتمام بحثي جديد للبرنامج، بأن جثامين الشهداء المحتجزة لدى الاحتلال الإسرائيلي ممكن أن تكون، على طريقة الأرشيف الحي والشفوي، أرشيفاً مجازاً علمياً. عبد الهادي، مديرة برنامج «AMED» (البرنامج الأكاديمي لدراسات الجاليات العربية والمسلمة) في جامعة ولاية سان فرانسيسكو، تتحدّث في هذا الحوار عن قضية الجثامين المحتجزة ودور المعرفة ودراسات إزالة الاستعمار في القضية، وتتطرّق إلى الواقع السياسي للأكاديميا في الولايات المتحدة، وهي التي تتلقّى على الدوام مضايقات الصهاينة

رباب عبد الهادي: رفات الشهداء كأرشيف لمقاومة الاستعمار

■ انضم خضر عدنان إلى لائحة طويلة من الشهداء المحتجزة جثامينهم. عشرات الأجساد، أو المئات، تتوزع على البرادات ومقابر الأرقام منذ سنوات، ويُحرم ذووهم من دفنهم. ماذا يعني أن الاحتلال كفعل إبادة أو سيطرة ومحو وإزالة، لا يكتفي بإنهاء حياة الفلسطيني؟ من يَستهدِف هذا العنف، ولماذا؟

- هناك ما لا يقل عن أربعمئة جثمان. هدف تلك السياسات: أولاً، العقاب الجماعي. وثانياً، كسر شوكة الناس؛ «كسر رأس» ومعنويات المناضلين والمناضلات، ومن ثم كسر إرادة الشعب بأكمله وتخويف أهالي الشهداء والأسرى لكي يضغطوا على أبنائهم وبناتهم فيستسلموا.

نقول في مشروعنا الجديد في «تدريس فلسطين» إن العظام ارشيف أيضاً وليس فقط الورق الأصفر القديم فحسب. العظام ارشفة، ارشفة ظلم ووحشية وعنف الاستعمار. وهي ارشيف كونها أدلة مادية على صمود ومقاومة الناس

عندما كنّا، أنا وإخوتي، نخرج في تظاهرات، كان شبح هدم الدار ماثلاً أمامنا دائماً.

مقاومة خضر عدنان كانت مقاومة سلمية، احتجّ الشهيد على قوانين الطوارئ الجائرة من عهد الاحتلال البريطاني، وهي خرق لكل حقوق الإنسان، فأضعف مؤسسة حقوق إنسان تقول ذلك، حتى الخارجية الأميركية تقول إن المتهم بريء حتى تثبت إدانته؛ فكان الشهيد الحاج خضر عدنان من خلال خوضه معركة الأمعاء الخاوية يطرح سؤالاً للجميع بقصد تسليط الضوء على ظلم هذه القوانين: قولوا لي ما هي تهمتي؟ أين لائحة الاتهامات؟! من ناحيتهم، حاول الصهاينة المس به وسلّحوا استخدموا الخطاب العنصري، المعادي للمسلمين والعرب للنيل من عدالة نضاله فركّزوا على انتمائه إلى حركة «الجهاد الإسلامي» وكأنها تهمة حتى يجردوه من إنسانيته وحتى محو مهنته كفوّاز مثلاً، بخبز الخبز، خبز الناس، ليبرروا تصرفاتهم اللاإنسانية التي تتسم بالعنف الاستعماري المنهج والاستبدادي. إنّ كَسر إرادة الشّعب مُهمة مركزية لسلطات الاحتلال لأنه أضحى رمزاً للصمود والمقاومة بأشكالها كافة.

تتشابه أساليب الصهاينة في كل السياقات مع استراتيجيات الاستعمار الاستيطاني العنصري الإحلالي القائم على الإبادة، حيث إنهم يهدّدون بفرض الخنوع، والخضوع، والاستسلام، والانهزامية. فبعد جرائم الجيش الإسرائيلي قصارى جهدهم حتى يحاولوا غسل أدمغة أبناء الشعب الفلسطيني لإقناعهم بأنهم مهزومون. لُبّ رسالة الحركة الصهيونية للشعب الفلسطيني أنكم يجب أن تستوعبوا في عرقِ دمكم، في عصبكم، أنكم شعب مهزوم. لأنه بمجرد أن يفقد الشّعب الإرادة على الاستمرار والصمود فإن الاستعمار يحقق أهدافه.

في كل الأعراف والأديان، إكرام الميت دفنه، حتى لدى من يحرق الجثمان، وذلك حتى تحظى عائلة الميت براحة البال رغم ألم الفقدان. لذا فقط أن نتخيل كمّ الألم الذي تعانيه أسر الشهداء. لقد التقينا أمس أمّ الشهيد ناصر أبو حميد، لذا فقط أن نتخيل كمّ الحزن الذي تجاربه أم الشهيد وعائلته، فمن ناحية أخرى، هم لا يريدون أن يظهروا مهزومين ومنكسرين فبذلك يمنحون المستعمر المسيطر ورقة ضغط بمُجرد أن يُقِرّوا بضعفهم ويعترفوا بالألم، ومن ناحية أخرى هذه مشاعر إنسانية حقيقيّة وطبيعيّة ولكن غير مسموح للشعوب المستعمَرة أن تعبّر عنها حتى لا يظن المستعمر أنه انتصر.

رسالة الاحتلال إذاً، أن يَكُفّ الشّعب الفلسطيني عن مُقاومته وأن يشعر المتضامنون معه بأن قضيته خاسرة.

■ كدارسة للاستعمار، ولا سيما في سياق سياساته الاجتماعية، ما الذي تضيفه إجراءات الاحتلال تجاه جثامين الشهداء على الطبيعة المائزة للاستعمار الصهيوني مقارنة بباقي تجارب الاستعمار؟

- ثمّة جوانب تشابه تجارب الاستعمار في سياقات أخرى. عندما ندرس مسألة الاستعمار، نفرّق بين الاستعمار الكلاسيكي الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الذي تُعدّ قضية «الإبادة» جزءاً من تركيبته، إذ هو لا يمكنه أن يثبت أنه صاحب الأرض ما لم يتخلّص من أهلها.

ثمّة، أيضاً، لدى المستعمِر، «لذّة» في ضرب المستعمَر، وفي أن يأخذ معه «تذكاراً» من ما يقوم به. في أميركا الشمالية، أو جزيرة السلحفاة حسب تسمية السكان الأصليين، كان المستوطنون ينزعون جلدة رأس المحاربين من أهل البلاد الأصليين بعد قطع رؤوسهم، يأخذونها كغنائم حرب، يعلّقونها في بيوتهم، كمثال وإثبات مادي، ويتباهون بها. هكذا كانوا يفعلون في أميركا عندما يشنقون الرجال السود في وضح النهار في إطار الإعدام الخارج عن القانون الرسمي، حيث كانوا يأخذون أولادهم في ما يسمّونه «النزهة» ليتفرجوا على قتل الناس لتنمية غريزة القتل فيهم.

عظام أهل البلاد الأصليين لا تزال موجودة في المتاحف الأميركية. وفي الجزائر، سلّم الفرنسيون السنة الماضية 24 جمجمة لمقاتلين جزائريين من أصل آلاف الجماجم التي لا يزالون يحتجزونها. وقد بيّن مالك علولة في كتابه البطاقات البريدية التي كان يرسلها السياح الفرنسيون من الجزائر إلى فرنسا، فيها مثلاً نساء عاريات، تُؤخذ صورهن رغماً عنهن كتذكار سياحي!

كذلك في جنوب أفريقيا حيث كان الاستعمار استيطانياً عُنصرياً، التي حتى بعد وفاتها، أخذ المستعمرون الفرنسيون أعضاء جسدها وعرضوها في المتاحف ولم يتم دفنها بشكل مُشرّف حتى قضت جنوب أفريقيا على نظام الفصل العنصري السياسي وطالب حينها نيلسون مانديلا الحكومة الفرنسية بإعادة رفاتها لدفنها وفعلاً دُفنت في مدينة كيب تاون وهناك نصب تذكاري لها.

يوهمون العالم بأنهم من «يكشف» عن هذه الأحداث وهذه طبيعة إنتاج المعرفة ضمن المنظومة الاستعمارية. فمثلاً في الطنطورة، يزعمون أنهم يعلمون ما حصل هناك بالتفصيل وقد كان أهل الطنطورة قد أدلوا بشهاداتهم حتى إن الكاتبة المصرية الراحلة رضوى عاشور كانت قد وثّقت ذلك في كتابها «الطنطورية» ولكن نظام إنتاج المعرفة الاستعمارية فقط استخدمَ مخرجاً إسرائيلياً «يوثق» كأن ذلك في فيلم وثائقي، وتم نسيان وتجاهل كل السرديات الوطنية الفلسطينية والعربية المناهضة للاستعمار التي سبقت الرواية الاستعمارية بشكل مُمنهج.

من سمات الاستعمار الاستيطاني البنيوية أنه يدمّر ويحتفظ بتذكار في آن واحد، ما يُوقعهُ في مأزق من ناحية إنتاج الفكر والمعرفة؛ فمن ناحية أخرى لديك أدلة. العظام هي أدلة. نقول في مشروعنا الجديد هي «تدريس فلسطين» إن العظام أرشيف أيضاً وليس فقط الورق الأصفر القديم فحسب. العظام أرشفة، أرشفة ظلم ووحشية وعنف الاستعمار. وهي أرشيف كونها أدلة مادية على صمود ومقاومة الناس. وإلّا، لماذا يحتجزون العظام؟ لماذا يدفنون الشهداء في مقبرة الأرقام؟ ويجدر الذكر هنا أنّ الطرف الوحيد الذي يعرف من هو المدفون، وأين، هو الاحتلال.

أود التذكير بأنّ الأرشفة، تاريخياً، هي جزء من منهجية الاستعمار. ويُقال إن أفضل الأرشيفات المتوفرة هو أرشيف المستعمر وهذه نظرة تقليدية واعتبرها استعمارية. إذ بيد السلطات الاستعمارية أن تسمح بنشر وثائق قديمة. ولكن المعرفة المطلوبة هنا هي معرفة ضد الاستعمار باتجاه «إزالة الاستعمار» وتفكيك المعرفة الاستعمارية، لا أوّمن بدراسة «ما بعد الاستعمار» لأن الاستعمار ما زال موجوداً وتبعاته كذلك. دعونا نُحلّل ما هي الدراسة المقبولة حالياً في أوساط إنتاج المعرفة التي يهيمن عليها الفكر الاستعماري. فعلى صعيد فلسطين هناك مسافة زمنية يجب الالتزام بها لتعتبر الدراسة «موضوعية» و«أكاديمية» لذا أحاجّ أنّ الفلسطيني الجيد -لديهم- هو الفلسطيني الميت. فوفقاً للمُستعمِر ممنوع مُطلقاً، ضمناً وتطبيقاً، الحديث عن التاريخ الحديث أو ما نسميه بالأرشيف الحيّ ولا سيما إذا ما كان يخُصّ أناساً أحياء. ولهذا حاربتنا قوى اللوبي الصهيوني وإدارة الجامعة المتواطئة معها كي تفرض «الفيتو» على المحاضرة المفتوحة التي نظمتُها مع د. توممي كينوكاوا والتي كانت عبارة عن جلسة حوار بين ليلى خالد ومناضلين ومناضلات من جنوب أفريقيا وقيادات الحركة الأسيرة السوداء والفلسطينية.

ويمكن التنويه هنا إلى أن تبعات هذه الهجمات تَخلق رقابة يفرضها الأكاديميون على أنفسهم حتى لا يتكلّم أحد عن ما يحدث اليوم أو في الأمس القريب، بينما أضحَت دراسة ثورة 1936 والفدائيين مقبولة، هذا بالطبع لا ينطبق على انتفاضة الأقصى التي بالكاد يتم الخوض فيها، إذ فور ما يتم ذلك تُجلّ الفوضى وتَعمّ حالة من الرفض وخصوصاً عندما تُقارن بانتفاضة الحجارة التي تُصوّر على أنها انتفاضة «حضارية» سلمية وبالتالي مقبولة لدى الغرب. إذاً ممنوع أن يتحدّث المستعمَر عن نفسه لأن ذلك يخرّب رواية المستعمِر. وهذا هو الإرهاب الفكري برُمّته -فرض الرواية السائدة، لا رواية المقاومة. ولكنهم في مأزق لأنهم يفقدون السيطرة على الرواية ولهذا هم يستشرسون في هجماتهم علينا.

■ يتوزع هذا العنف، أي إخفاء الجثامين، بحق حرمة الجسد وبحقوق ذويه، على أجساد مختلفة، نساء وقاصرين وأسرى ومقاتلين شهداء. هل في رأيك الحالة واحداً هنا مع الجميع من حيث نوع العنف وتوصيفه الاجتماعي والقانوني ووظيفته؟

- نعم ولا. لا، لأن لكل حالة قدراً مُعيناً من الخصوصية ولا أشير هنا إلى الخصوصية الاستثنائية بمعنى الاستثناء الذي لا يمكن تعميمه. ثمّة خصوصية لكُل واقع، ثمّة خصوصية للفدائي، وهذا الذي أثار التساؤلات حول الشهيد خضر عدنان الذي كان مضرباً عن الطعام.

نعلم، ولا نتفهّم، إذ لا يُمكن تبرير أسباب احتجاز عظام الشهداء ما يزيد عن أربعين سنة، فمثلاً جثمان وعظام الشهيدة دلال المغربي ما زالت محتجزة منذ عام 1978، وهناك قبلها وبعدها ممن احتُجزَ في مقبرة الأرقام. هل يُعقل أن يكون كل ذلك، كما يدّعي قادة الصهاينة، من أجل المقايضة فقط؟ فهم سبق أن قايضوا من قبل. كان من المفترض أن يسلموا رفات الشهيدة دلال المغربي في عملية التبادل عام 2008، حين طالبت المقاومة بجثامين الشهداء ولكنهم كذبوا كعادتهم وقالوا إن هناك خطأ في فحص الـ«دي إن إيه»، كُل ذلك كذب، كُل ما يمارسونه ممنهَج وليست فيه استثنائية أو خطأ أو أمر عابر.

في عام 2016، نظمتُ أوّل وفد أسرى محررين من الولايات المتحدة، من حركة الفهود السود وغيرهم من الحركات المناهضة للاستعمار الإستيطاني، إلى فلسطين، التقينا بأناس كثيرين ومنهم المحامي محمد عليان، والد الشهيد بهاء عليان، الذي هزّت إفادته أعضاء الوفد، بمن فيهم مَن كان مطارداً من السلطات الأميركية لعشر سنوات ومتخفّياً تحت الأرض، مِنهم أسيرة محررة أخرى قضت 14 عاماً في السجن، فنحن لا نتحدّث عن أناس خرجوا أمس فقط في تظاهرة وسُجنوا فحسب، هؤلاء لديهم باع طويل في النضال؛ وقفَ الجميع مشدوهاً وأبو بهاء يتحدّث عن ابنه الذي لا يدري كيف حاله في الثلاجة بدرجة حرارة 500 تحت الصفر: «بدّي ادفن ابني». كتبت زميلة مقالاً عن الموضوع في «مونثلي ريفيو برس»؛ وعندما تسلّم محمد أخيراً جثمان الشهيد بهاء عليان، منعت سلطات الاحتلال بأن يحضر أكثر من 25 شخصاً مراسم الدفن التي أصرّ الاحتلال أن تكون في منتصف الليل، كما تم منع حضور الصحافة والإعلام.

يقولون إنهم أخطأوا في رفات دلال المغربي، علماً أن الاستعمار يَدّعي أنه محترف، كما تكلم غرامشي عن سياسة الهيمنة، وهي ليست بالضرورة بالسلاح، يصبح المستعمَر والمستعمِرة يقتنعان بأفكار المستعمِر ويشككان في نفسيهما - ظاهرة فرانز فانون وكما نسميها بالعامية «عُقدة الخواجا» أساسية في جدلية السيطرة، تجعل الناس يلتزمون بما تريد، تبدو السلطة بعيدة وتتحول العلاقة إلى خوف من شبح، بلا حاجة إلى الواسطة ولا سلاح يفرض الأمر الواقع، مع العلم أنه ليس هناك شكل واحد للهيمنة، فمن المحتمل أن تجتمع وتختلط أشكال وأنواع الهيمنة العسكرية المباشرة وغير المباشرة كما يتم في فلسطين وكلتاهما تستندان إلى العنف الجسدي والمكشوف والعنف الفكري و«الخفي». هُم كاذبون. لديهم آلية إعلامية هائلة. فعندما تفلت صور عن احتفال المستعمرين بضرب وتعنيف المستعمَر، هذه ليست صدفة. عندما يجلسون في سديروت ويتفرجون على القنابل التي تسقط على غزة، وقد فعلوها في عام 2014 وهو ما كتبتُ عنه في مجلة الدراسات النسوية في عدد خاص عن الاستعمار الاستيطاني، حول هذا «الاحتفاء بالموت». عندما يتخرّجون من الجيش الإسرائيلي ويلبسون قميصاً يحمل صورة فلسطينية حامل، مكتوباً عليها: «طلقة واحدة... هدفان»، هل هذه مزحة، لا علاقة لها بهدف «الخطر الديموغرافي»؟ صدفة؟ لا أعتقد ذلك على الإطلاق. هذه كلها جزء من لعبتهم الإعلامية المنمهجة والمقصودة.

■ بدأتم في مشروع «تدريس فلسطين» بالاهتمام بملف الجثامين المُحتفَظ قسراً، ما هو دور المعرفة في قضية كهذه؟

كباحثة، أسّست «تدريس فلسطين» من خلال مشروع «AMED»، وهذا مشروعي البحثي، ومن خلاله توصّل البحث إلى أن معالجة هذه القضية في غاية الأهمية، وهي لها علاقة ببحثي التاريخي عن قضية المرأة، ودلال المغربي، والفدائيات ودورهن.

بدأت في «تدريس فلسطين» في عام 2016 خلال الذكرى العاشرة لجدارية إدوارد سعيد، بالتزامن مع الاحتفال بمرور خمسين سنة على أطول إضراب طالبي في تاريخ الولايات المتحدة، قامت به منظمة الطلاب السود وتحالف طلاب العالم الثالث المدعومين من جماعة الفهود السود.

كان همّي حينها أن أسائل كل من يتحدّث عن عام 1967 كالذكرى الخمسين للاحتلال، أين أنتُم من النكبة؟ وعد بلفور؟ حق العودة؟ انتفاضة الحجارة، حصار غزة، صبرا وشاتيلا... كان الهدف أن لا تسقط أي قضية من قضايا مكوّنات الشعب الفلسطيني وأن يتم ربطها بإنتاج معرفي غير مُبسط، يطرح مسائل بحثية جدّية. يهتني التاريخ، التاريخ من وجهة نظر المقاومة، لا أن تكون رواية الاستعمار هي الأساس المعرفي الذي يفرض علينا الإجابة على أسئلة المُستعمِر. ربما لن ننجح في تصحيح جميع المصطلحات والتعابير على المدى القصير، لأن ثقة تاريخاً استعمارياً طويلاً للغة، الإنكليزية لغة استعمارية. لكن دُعيت، مثلاً، إلى البرلمان الفرنسي للحديث عن وعد بلفور، بتنظيم من الشيوعيين الفرنسيين، دعوني وجوزيف مسعد وإيلان بابي والآن غريش وطرحنا هذه المسائل ومن ضمنها رفض استخدام مصطلح الانتداب بل الإصرار على تسمية الأمور بأسمائها واعتماد «الاحتلال» البريطاني وغيرها.

في مسألة التدريس، هناك من يُعلّم ومن يَتعلّم؛ لدينا مشروع «الصفوف المفتوحة»، كل من يود أن يحضر، أهلاً وسهلاً به، وقد احتجّت عليه إدارة الجامعة لأنه يُناقض فرض رسوم التعليم ونحن بدورنا نؤمن بحق التعليم المجاني للجميع. توفّر الصفوف المفتوحة لنا إمكانية إبراز من نسميهم بالأرشيف الحي، بالناس الذين لديهم روايتهم المباشرة. مثلاً، في إضراب الطلاب السود في الستينيات اعتُقل 800 شخص، بينهم الممثل الشهير داني غلوفر، المتضامن مع فلسطين، وقد حضر لمشاركتنا روايته، هكذا عبر حوار الأجيال ننقل التجارب إلى الشباب الذين سيقودون حركة التغيير فيتعلّمون من الأخطاء ويهتدي التاريخ، التاريخ من وجهة نظر المقاومة، لا أن تكون رواية الاستعمار هي الأساس المعرفي الذي يفرض علينا الإجابة على أسئلة المُستعمِر. ربما لن ننجح في تصحيح جميع المصطلحات والتعابير على المدى القصير، لأن ثقة تاريخاً استعمارياً طويلاً للغة، الإنكليزية لغة استعمارية. لكن تكميم الأفواه وتجريم تدريس فلسطين.

شعارنا هو أنه لا ملكية خاصة للمعرفة، المعرفة للجميع. ونريد صناعة المعرفة لأننا نريد التحرير، تحريراً شعبياً، تحرير كل الشعوب المضطهدة، وتحقيق العدالة للجميع. ما أقوم به هو التورّط: التورّط في المحاسبة والمسؤولية أمام شعبي، لا لأجل الترقيات من الإدارة.

المشروع أولاً هو الطرح نظرياً أن النظام «أرشيف مجاز» للبحث العلمي، لكن ليس كما يطرحه المستعمِرون، الذين يذهبون إلى المتاحف ويقيسون العظام. كانوا يفعلون ذلك، يقيسون جمجمة الأسود ويزعمون أنه أقل تطوراً من جمجمة الأبيض. وثمة من يدرس العظام أركيولوجياً وأنثروبولوجياً...الخ، أنا أقول إنّ في هذه القضية أدلّة على التاريخ، أدلة على عنف المستعمِر. دافعي هو قضية التحرر قبل التقدم والإنجاز الأكاديمي.

عندما ذهبنا العام الماضي إلى المكسيك، من المنتدى الاجتماعي الفلسطيني للمشاركة في المنتدى الاجتماعي الدولي، كان هناك زميل يهودي مناهض للصهيونية من بروكلين يعيش في المكسيك، سُحبت منه الجنسية الأميركية، أخذنا على متحف مخصص لتاريخ المفقودين ولأم فقدت ابنها إبّان الحكم الاستبدادي، وأقامت حملة كبيرة أدّت إلى اعترافهم باحتجاز ابنها. وهذا يشابه تكتم إسرائيل لفترة طويلة على مقابر الأرقام، لكن حملة الأهالي فرضت نفسها وانتزعت المعلومات بنفسها. لا يضيع حقّ وراءه مطالب.

يوجد في أميركا اللاتينية الكثير من المفقودين، فنحن لسنا حالة خاصة أو استثنائية. علينا أن نفكّر في «شمولية العدالة» ولا سيما عندما ننظر إلى حركات التضامن التي تحوق بها ضغوط الصهيونية في أميركا. وهذا ما أحاول فعله مع الطلاب في جامعة سان فرانسيسكو، مثل المكسيكيين، حين أستمع إلى همومهم وملاحظاتهم. صمّمنا صفاً اسمه «مقارنة الحدود ما بين المكسيك وفلسطين».

هناك قضية الـ 43 طالباً وطالبة من المشاركين في التظاهرات، الذين اختفوا في المكسيك قبل سنوات، وقد تبيّن أن الشركة الإسرائيلية صاحبة «بيغاسوس» تتجسّس على محاميهم وكل من له علاقة بالقضية. في تشيلي، من عام 1973، منذ الانقلاب على سلفادور الندي بمساعدة «سي اي ايه» وتنصيب الدكتاتور بينوشيه، اختفى كثيرون. في الأرجنتين، هناك حركة كبيرة اسمها «أمهات ساحة مايو» - الأمهات اللواتي يطالبن بجثامين أبنائهن منذ احتجازهن في مايو 68. ليست كل القضايا واحدة وبنفس المعايير، نقوم بالمقارنة والدراسة، لكن هناك قضايا مشتركة، وهذا ما نعنيه بعدم تجزئة العدالة، والذي يخلق حالة عالمية أممية لمناضل الناس معاً وليفهم بعضُهم بعضاً ولا يظل التركيز على الفلسطيني فقط. مهم أن يعي شعبنا أنه ليس وحده وهو شرط ضروري لاستمرارية المقاومة.

يقولون إنّ هذا كلام عاطفي وليس بحثاً علمياً، ذلك لأن الاستعمار لا يريد أن يسمع أنّات المستعمَر، فيطالبوننا بالعقلانية وكأنّ هناك تناقضاً بين المسألتين. إضافةً إلى ذلك، إذا استهدفتَ كل شيء في حياتي، فكيف لا أكون عاطفياً؟ كيف لا أغضب؟

■ كأكاديمية في الولايات المتحدة، تعرضتِ للكثير من مضايقات الصهاينة. لكن ألم يتراجع هذا المناخ العدائي في الآونة الأخيرة؟

- بالعكس، الأسبوع الماضي قامت فاطمة، الفتاة اليمنية، بإلقاء كلمة في كلية الحقوق بجامعة نيويورك، هاً هُم يلاحقونها بالتهديد، وأنا تأخّرت على موعد هذه المقابلة لأنّي كنت أنظّم نشاطاً تضامنياً معها.

بالعكس، الوضع أسوأ، لماذا؟ الحركة التضامنية واسعة جداً، بالفعل الصهاينة لديهم أزمة حقيقية، رغم كل شيء، أزمة في الرأي العام. هم غير قادرين على تبرير أنفسهم؛ كانوا يقولون تاريخياً «إسرائيل وطن لليهود الهاربين من الهولوكوست»، خرج كثير من الناجين من الهولوكوست قالوا لا نريد إسرائيل، من أينشتاين إلى حنة أرندت، قالوا لهم لا تتحدثوا باسمنا. لذا هم الآن مستشرسون أكثر.

تقدّمت بمشروع «تدريس فلسطين» للإجازة الأكاديمية ثلاث مرات ولكن إدارة الجامعة رفضته وطالبتني بألّا أستخدم اسم الجامعة ولا برنامج «AMED» الذي أديره لمؤتمرين ووفود إلى لبنان وتونس في أيلول الماضي لإحياء ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا واجتياح لبنان وحصار بيروت إضافة إلى مساهمات أخرى كالذكرى الخمسين لاستشهاد غسان كنفاني والخامسة عشرة لحصار غزة والعشرين لاجتياح المدن الفلسطينية ومجزرة مخيم جنين. ولكنّي رفضت هذا التحذير التعسفي واستمررتُ في مشاريعنا واتّضح لي عبر نقابة الأساتذة أنه لم يشهد تاريخ الجامعة أن فرضت الإدارة على أي أستاذ أن يأخذ «إذناً» بالمبادرة أو عقد نشاطات أكاديمية من قبل. طبعاً كوني ترعرعت في ظل الاحتلال، فهمتُ جيداً ما تحاول الجامعة القيام به وما هو إلا تجريم تدريس فلسطين وتفكيك البرنامج الأكاديمي لدراسات الجاليات العربية والمسلمة في المهجر لأننا ملتزمون بإنتاج المعرفة من أجل العدالة. وبعكس مُضايقات الجامعة المتحالفة مع القوى الصهيونية حول تدريس فلسطين، فقد وافقت الإدارة على إجازتي الأكاديمية حول «تعليم الجدر والجنسانية» وهذه لعبة الأنظمة الاستعمارية التي تحاول استعمال تحرر المرأة كبديل عن التحرر الوطني وتطرح صيغة استشراقية عنصرية تستند إلى الإسلاموفوبيا وما أسميه بـ«النسوية الاستعمارية» أو «الحريم الاستعماري» حسب مالك عاولة.

رغم قدراتهم وإمكاناتهم الهائلة، فقد حقّقنا مجموعة من الانتصارات تمثّلت أخيراً بحصولنا على ثلاثة اعترافات من اللجان الأكاديمية بالظلم الذي يلحق بنا مع إقرار بالتواطؤ مع الصهاينة وضرورة الاعتذار والتعويض بما فيه إلغاء

ممنوع أن يتحدّث المستعمر عن نفسه لأن ذلك يخرّب رواية المستعمِر. وهذا هو الإرهاب الفكري بزمّته -فرض الرواية السائدة، لا رواية المقاومة. ولكنهم في مأزق لأنهم يفقدون السيطرة على الرواية

صف ليلى خالد. هذا بحدّ ذاته وضعها في مأزق، ماذا يفعلون بنا؟ على إثر ذلك، قامت رئيسة الجامعة بممارسة حق النقض «الفيتو»، كما تفعل أميركا في مجلس الأمن، ولكننا قدّمنا استئنافاً. والآن يحاولون إجباري على الاستقالة. وفي أوائل أيار نشرَ ديفيد هورتوس، أحد قيادَتي أكبر المنظمات الصهيونية في أميركا، قائمة بأكثر الأساتذة «كرهاً لإسرائيل»، ترأس اسمي القائمة. ولمعاقبتي على رفض سياسات تكميم الأفواه ومحاربة محاولاتهم كافة لتجريم «تدريس فلسطين»، تحاول الجامعة حالياً شطب مساقاتي عن «فلسطين» و«الإمبريالية والاستعمار والمقاومة» وإجباري على تدريس مساقات ليست من اختصاصي وذلك لفرض حقائق على الأرض، تماماً كما يحاول الاحتلال في فلسطين، وكذلك يحاولون استخدام الاستراتيجية الاستعمارية «فرّق تسد» لشقّ الصف بيني وبين زميل فلسطيني جديد، ولكني مدركة تماماً لأهدافهم والأعيبهم وبالتالي أرفض أن أتعامل معهم على هذه الأسس بل أصرّ على التعامل المبدئي والشفافية، وأقول بالنهاية إنّ مرجعيتي ومحاسبتي تأتيان من شعبي وجماهيرنا، وليس من إدارةٍ متواطئة مع المشروع الصهيوني.

نحن لا نكترث لسمومهم ونستلهم نشاطنا الأكاديمي والفكري والتدريسي والنضالي من الملاحم التي ترسمها شعوبنا إن كان في تحرير الجنوب أو في المقاومة في فلسطين. لست قلقة لأنّ كل الهجمة لا تؤثّر فيّ ولا تجعلني أتراجع.

البلاد

في القدس: قيامة الكتب أيضاً

هشام عبد الله

لا شيء يشغل القدس عن القدس، أسوار بلدتها منتصبة قائمة، كما لو أنها بُنيت للتوّ. ولا يفتُ من عضد بلدتها القديمة جنود احتلال مدجّجون، ولا مستوطنون يعبرون إلى بيوت استولوا عليها ببطش دولتهم. بتقاطر سيّاح حجاج بلغات عالمية، ليتمثّلوا رحلة المسيح على درب الآلام، وليتقاطع طريقهم مع مؤمنين آخرين، ينزلون من باب الواد إلى المسجد الأقصى قبل صلاة الظهر. مئات الآلاف يمرّون عبر حواجز عسكرية تحيط بالمدينة من كل الجهات، وكما يلتقي المقدسيّون وأنصارهم من مختلف مناطق فلسطين المحتلة، ليصدّوا اقتحامات المستوطنين المتواصلة للمسجد الأقصى ولكنائسها المرابطة، أو للتضامن مع عائلات الشيخ جراح التي تتهدّدها محاولات إسرائيل طردها من بيوتها، تلتقي الكتب كذلك بأصحاب لم تعهدهم من قبل، هكذا فقط لأنها تأبى الرحيل عن المدينة المقدسة.

> يقول الغول: «ما تقوم به إسرائيل، عملية غسل دماغ جارية ومتواصلة، وجزء من إيديولوجيا معادية، سيجد المثقف الفلسطيني نفسه منغمساً فيها من غير أن يدري»

وقصة الكتب هذه تشبه القدس تماماً، تشبه أهلها المعذبين الذين لا يكلّون من تحمّل العذاب، طالما أنهم بقوا فيها. للكتب هذه قيامتها التي يبدو أنها تريدها أن تجاري قيامة القدس الموعودة، ولمْ لا، وهي أرض المحشر والمنشر، كما يردّد المؤمنون على اختلاف كتبهم وتفسيراتهم الدينية؟

وفي أصل الحكاية، يذهب خالد الغول، المقدسي المنشغل بهموم الثقافة، ابن بلدة سلوان جارة الأقصى الجنوبية، إلى بيت عزاء عند الجهة الشمالية من القدس، حيث «أرض السمار» من أراضي بلدة لفتا، كبرى بلدات القدس التي احتلتها إسرائيل عام 1948. وعلى أرض السمار هذه، صمدت عائلات من لفتا لم تبرح منازلها، وأقامت جمعية أهلية تعنى بشؤون الناس الاجتماعية والثقافية. ظلّ أهل «أرض السمار» التي غزتها مساكن تابعة للجامعة العبرية القريبة، وفنادق وعمارات تجارية، في منازلهم، ولّما بات من نصيب مقرّ الجمعية أن يهدم، في طريقه للتحوّل إلى بناية تجارية، أصبح مصير مئات الكتب والمخطوطات التي اتخذت من مقر الجمعية منزلاً لها على مرّ عقود، على شفى حفرة من النار.

وإن كان ثمة ترجمة متاحة وحاضرة لـ«يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي» أن تظهر أمامنا، فإن مكتبة «أرض السمار» على مدخل القدس الشمالي، تبدو مثالاً على ذلك. يقول الغول «ونحن منشغلون في بيت العزاء، والترحم على الميت، اقترح عليّ أحد الحضور الذي يعرف اهتمامي بالكتب أن أحتضنها». ومن هنا بدأت قيامة المكتبة.

ولم تمرّ أيام على نقل «المكتبة» إلى أمام منزل الغول في سلوان، حتى زاره صديق يطلب كتاباً لابنه الصغير، الذي لم تفتنه التكنولوجيا الحديثة الرقمية عن سحر الكتاب التقليدي، وليكتمل أيضاً ركن آخر من أركان قيامة مكتبة «أرض السمار» التي لا تزال في طور التشكل. يقول الغول: «قال لي صديقي إن ابنه يبحث عن كتب مطبوعة لمحمود درويش وغسان كنفاني وغيرهم»، وأضاف: «تملّكني شعور عظيم عندما أعطيته الكتاب، ولمعت في ذهني فكرة، ونشرت على صفحتي على فايسبوك، وكتبت طالباً التبرّع بكتب... نحو مكتبة أهلية عامة في القدس».

وفوجئ الغول، ابن القدس التي تعرف المعجزات، ولا تؤثر فيها المفاجآت، من حجم ردود الفعل على دعوته لإنشاء مكتبة عامة في القدس. انهالت عليه عروض التبرع بالكتب والمساعدة، يقول: «كانت تلك أجمل الورطات التي تورّطت بها، والآن أنا منهمك في جمع الكتب والبحث عن مكان يستطيع أهل القدس الوصول إليه بكل سهولة ويسر».

وطالما كانت القدس، بمسجدها ومدارسها ومكتباتها التاريخية، مقراً للدارسين والباحثين والمؤلفين، وحرصت إسرائيل منذ احتلال الجزء الشرقي من القدس عام 1967، وإعلانها لاحقاً «عاصمة» لها، على الإغلاق والتضييق على المتاحف والمراكز والمؤسسات التي تعنى بالثقافة وبهوية المدينة الفلسطينية العربية الإسلامية والمسيحية.

وفي الوقت الذي يحاول فيه الغول إنشاء مكتبة عامة في القدس، وتصارع فيه المؤسسات والمراكز الثقافية الأخرى في المدينة، للبقاء بسبب القيود والضغوط التي تفرضها إسرائيل، تمضي بلدية الاحتلال الإسرائيلي في ضخ أموال كبيرة، وافتتاح مراكز ثقافية واجتماعية ورياضية، تفوق قدراتها كثيراً قدرات المراكز الفلسطينية، في سعيها المحموم لـ«تهويد» المدينة، ولا تستطيع المراكز والمؤسسات الفلسطينية الحصول على دعم من السلطة الفلسطينية، خشية إغلاقها من قبل السلطات الإسرائيلية، بينما تقف السلطة الفلسطينية بعيداً بذريعة التزامها باتفاق «أوسلو» الذي يمنعها من العمل في القدس.

ويقول الغول: «ما تقوم به إسرائيل، عملية غسل دماغ جارية ومتواصلة، وجزء من إيديولوجيا معادية، وبدون مقاومتها سيجد المثقف الفلسطيني نفسه منغمساً فيها من غير أن يدري». وحتى قيام السلطة الفلسطينية عام 1994، احتضنت القدس مقرّ الاتحادات والنقابات والجمعيات الفلسطينية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، لكنها رحلت جميعاً إلى رام الله بعد ذلك.

عادة ما تكون مبادرة مثل إنشاء مكتبة عامة، حتى لو أنها جاءت في عصر الرقمنة، أمراً طبيعياً، لكنها في القدس تأخذ طابعاً مغايراً ملاصقاً لطبيعة المدينة الروحانية التي تظلّ تخطو على طريق القيامة، أو هكذا يشير الغول: «التحدّي في أن يصبح المألوف والعادي مشكلة، لا أعرف ماذا ستؤول إليه الأمور، لكن أعرف أنه ممكن وبحاجة إلى جهد جماعي».

(نكبة حيفا، عبد عابدي)

حيفا أكبر من كندا!

وليد عبد الرحيم

ليس الأمر ضرباً من الحنين المؤلم للمكان، أو لنقل «نوستالجيا» الفقد القسري فحسب، ثمة روح غير مرئية تَغوص في أحمالها وتفاصيلها بين حجارة مرصوفة تُعبّد الطريق إلى الماضي وغراب ينعق ممزقاً علم الوهم السائد، وحالماً بعودة المستقبل السحيق.

حتى الساعة، لم تكن هناك قراءة تنتهج البحث بعمق صهيل البَوح البُكائي على فَقْد سحر المكان، فهناك سر لا يدركه حتى من أفشاه ذاته، حيث سحق الخطاب السياسي براعة الحس الفطري وطغى صوت البكاء العويلي والبنادق العنترية على قسرية منظمة يختلف عن تركه للولوج في بلدان أكثر اتساعاً أو أرحب رزقاً.

أجمل من كل ما كتبه المحترفون في صَوْغ الحُروف وسبك الرواية عبارتان، واحدة قرأتُها ذات يوم، وأخرى سمعتها من جوف حلق غُصّة امرأة حيفاوية مكثتْ في كندا منذ الستينيات بعد هجرتها الثانية من لبنان إلى مونتريال، الأولى عبارة كتبها ببساطة معلّمةٌ أديبٌ هو جهاد صالح، في إهدائه لرواية له في الثمانينيات كاتبًا «إلى أمي، التي لا تزال تصرُّ على أن شاطئ حيفا أجمل من شواطئ البحر المتوسط». الثانية، وهي الأعمق، التقطّها شخصياً، شفهياً من فم امرأة حيفاوية مكثتْ في كندا حياتها الأخير في مونتريال بكندا، لكنها مكثت منذ ستة الآف عام في فلسطين، ولم تدرك عمر ذاكرتها الحقيقية عقلياً لكنها عاشت تلك الحسّية الرهيبة التي تنغرُ برَحمها صدرَ الفلسطيني- صَوْبَ المكان. صديقي البروفسور في الرياضيات -ابن أم حسين- وباعتيادية بسيطة، خلال حديث عن مدينة بعيدة، يذكر لأمه كم أنّ كندا واسعةٌ بمساحتها الجغرافية فتردّ وتصحح له: «لا يُمّا... حيفا أكبر» ها هو يضحك لسذاجتها وأنا أبكي لسذاجتنا!

يبدو سحرُ المكان مهيمناً لدى الروحانية الجوانية للفلسطينيين، أعني غيرَ المُسيَّسين، غيرَ المثقفين، والذين هم ليسوا بقادة أو كوادر في معمعة العمل الوطني، تلك مسألة خارقةٌ في وَهْجها الدافع نحو قراءةٍ أخرى لا تميد صوبَ المألوف ولا تستعيد التكرار المُمِلّ أو تستعمل مفردات الخطابة الغبية المسبوكة في مشاغل أروقة السياسة المتخشبة.

هل ترغب أو تريد العودة إلى قرية في أعالي عكا، قريةُ أجداد كاتب هذه السطور التي لمْ يرها قطّ إلا في وجنات أمه وخنق أبيه الذي ما انفكّ يشتم جيوشَ الزعماء العرب وخياناتهم بالتشارك مع الإنكليز والعصابات الصهيونية، وعلى كتفه علامة شاهدةٌ، حرق قديم نتج من شراء بندقية من الجيش العربي، بعد أن باعت له أمُّه الصفديةُ سواراً ذهبياً على شكل أفعى ليحصل على طلقات وبندقية كي يحمي شرفَ حضن أمه، وفي صدّ الهجوم على «البروة» الواقعة أعلى «نحف»، أطلق أول طلقة من طلقاته العشرين التي حصّلها مع البندقية لقاء سوار الأفعى، فانفجرت به لا بالإرهابيين الصهاينة. وظل كتفه حتى وفاته ودفْنِه في مقبرة مخيم اليرموك يبدو كأن خريطة تشكّلتْ من بُقعة زيت ملتهب تُشابه تضاريس جبال الجليل، والتي سأل عن سببها مُغسّل الموتى فردّ ابنُ عمه بأنها شاهد على خيانة الأنظمة فصمت المغسل فجأةً كالمغسول المُسجّى...

لا يعرف الفلسطينيُّ العادي مكاناً قطّ إلا ويقارنه بالـ «هناك»، فالـ «هنا» مُجرّد مكان لجوء مؤقت، لهذا نجد بأن خميمَيّة المخيم بكل زواريبه التي نسخوا على جدرانها أسماء مدن وقرى الفقْد، والتي أريد لها أن تبقى متعفنة الرائحة هديمة السُّقوف ومتينة الفوضى، كي لا تُذكّر أحداً ببيارات يافا وروابي القدس وضَحْيَة الأقصى ورنينَ أجراس كنيسة القيامة وسائر دروب العاشقين ونغماتها.

في القدس، سيدة المعاني، وعاصمة الحلم القادم المتكامل الأبدي وحتى المُصغّر السطحي المرحلي كما حبكتُهُ غباواتُ السياسة، ثمة رجل وامرأة لم يشهدا النكبة، يعيشان في بيت داخل حي قديم مُتوارثٍ، تتسلّقُ على جدرانه من الخارج نباتاتٌ تبدو ظاهرياً للزينة، مع باب بقوس حجري. هناك يدفع منذ عشرين سنة رجالٌ من جنسيات مختلفة بعضهم من المستوطنين اليهود الذين حاولوا في السابق وفشلوا في الترغيب بالمال الوفير لقاءَ البيت، تبعهم أوروبيون، ثم بعضٌ من فصيلة الخونة، وأخيراً -منذ سنوات ستّ- عرض وكيل نظام دولة خليجية حكامها «إبراهيميون!» ستة ملايين من الدولارات لقاء المنزل الذي لا يساوي عقارياً المئتي ألف دولار فطردتْهُ المرأة الأربعينية شرّ طردة!

لم يعش الجيلُ الجديدُ في المكان قبل النكبة، جُلّ من هم في الخارج، وُلدوا وترعرعوا في بيوت الذاكرة، ومنْ هم في الداخل ولدوا ليجدوا بلادهم قد سُمّيتْ دولياً باسم آخر، فلم يشهدوا سحر حيفا ولا هدوء يافا أو ذاقوا حلاوة عنب الخليل، لكنهم شربوا عبر جينات حسية ماءَ النبعة العذب من أعالي جنين ونابلس، وتوضؤوا بابتهالات شاعر كنعاني قرب ترشيحا، كما ساحواً مع يسوع المعذّب المدمَّى في حواري القدس وشاركوا دبكة الصبايا في قرى بيت لحم.

المسألة ذَهولةٌ مُذهلة، مُحيرة إن استقينا مفردات وتصنيفات علم الاجتماع والفلسفة ونظريات علم النفس، لا أدل عليها من روايات من هم في مثل سني، أعني مَنْ منعتهُ ديموقراطية وقيم الحرية من رؤية قلعة وحواري عكا وشاطئ يافا، لكنه ما زال ولا يزال يصف المكان كمَعايشٍ سابقٍ ولحظيٍ!

ليس الفلسطينيُّ مُصاباً بمُتلازمة الـ «نوستالجيا»، المسألةُ أعمقُ وأقسى وأفهرُ من ألم الفَقْد وحتى من لهيب صَهْر الحديد في الأتون، فقد نجح الحديدُ في القتل البارع لكنه فشل في إزاحة المكان من جوانح طيور الغد وجدران الذاكرة، يُمكن اختصار كل ذلك في تلك العبارة العميقة الحارقة الجارفة التي قالتها أم حسين الكندية بكل بساطة ووضوح وانسيابية: «حيفا أكبر من كندا»!

«الدولة الديموقراطية الموحّدة»: ما موجبات الطرح؟

وسام رفيدي

في السنوات الأخيرة، نشطت الدعوات هنا وهناك من قبل سياسيين ومثقفين لطرح شعار الدولة الديموقراطية الواحدة كبديل لشعار/ حل الدولتين. ربما يعود السبب إلى عامل محدّد يتكرر كثيراً في الكتابات الداعية لهذا الحل: فشل ممكنات تحقيق حل الدولتين نتيجة التداخل الديموغرافي الذي خلقه واقع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، ما عنى انتفاء ممكنات قيام دولتين على أرض فلسطين. قبل تناول هذه القضية بالنقاش، يستوجب طرح السؤال البديهي: ما الفائدة من النقاش حول شكل الدولة فوق أرض فلسطين قبل إنهاء المشروع الاستيطاني أصلاً لفلسطين وتحريرها من هذا المشروع وتجسيداته؟

من الزاوية التاريخية، فإنّ حقيقة الاستعمار الصهيوني لفلسطين وترحيل 850 ألف فلسطيني في عام 48 وبناء الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، تجعل من القضية الفلسطينية قبل كل شيء، قضية تحرير للوطن وعودة للاجئيه، وتجعل من توصيف «الاستعمار الصهيوني الاستيطاني الترحيلي» هو التوصيف الدقيق علمياً وتاريخياً، وغير ذلك تلاعب بالألفاظ يموّه أو حتى يشوّه الحقيقة. بالاستناد إلى هذه الحقيقة التاريخية، فإنّ هدف الشعب الفلسطيني هو تحرير فلسطين وعودة اللاجئين. والتحرير يعني هنا، دون مواربة، إنهاء/ تفكيك وجود المؤسسات الصهيونية التي كانت بمثابة تجسيدات للمشروع؛ دولته بمختلف مؤسساتها، ومستوطناته اليهودية، ومرة أخرى غير ذلك، أي حديث عن هدف النضال الوطني لا يتضمن تحرير فلسطين وفق المنظور أعلاه وعودة اللاجئين لا يغدو كونه إدارة الظهر للحقوق التاريخية لشعبنا.

الهرولة في الفكر السياسي الفلسطيني

بداية، أودّ التأكيد على ما أعتقده ظاهرة التسلسل التنازلي في الفكر السياسي الفلسطيني المعاصر، منذ انطلاق الثورة الفلسطينية المعاصرة حتى اليوم. فمن شعار تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني (تحرير فلسطين) كمدخل لحل الديموقراطي للقضية الفلسطينية بإقامة دولة فلسطين الديموقراطية العلمانية، مروراً بشعار السلطة الوطنية في عام 1974، ومن ثم الدولة الفلسطينية في حدود عام 1967 الذي تحوّر إلى الشعار الملفّق (دولتان لشعبين)، ليصل إلى سلطة الحكم الإداري الذاتي حسب «أوسلو»، وصولاً إلى دولة بوش (القابلة للحياة)، والتي غازلها فريق «أوسلو الجديد» (عباس/ فياض) وإن ليس علانية. أقول، منذ عام 1967 ومسلسل التنازل الفلسطيني (الرسمي على الأقل) بات لا يعرف حدوداً، حتى أصبح شعار الدولة مشروعاً أشبه بمشاريع المنظمات غير الحكومية، مقدّماً للتمويل الغربي من لدن حكومة فياض، وبمعزل عن التحرير والتحرر وإزالة الاستيطان، بمعزل عن دحر مشروع الكولونيالية الصهيونية في فلسطين.

إنني لا أرى بهذا العملية التنازلية في الفكر السياسي محض «واقعية سياسية» كما يروّج، وتحديداً من بعض قوى اليسار أو اليمين الفلسطيني الحاكم، في المنظمة سابقاً وسلطة الحكم الذاتي حالياً. إنه تعبيرٌ عن التحولات الطبقية داخل قيادة حركة المقاومة في حقبة السبعينيات بتأثير الحقبة النفطية، بحيث عكس التنازل ثقل النخب البيروقراطية على رأس جهاز المنظمة حينذاك، هذا الثقل الذي أوصل بتحالفه مع الرأسمال الفلسطيني في الخارج إلى «أوسلو»، ليغدو مشروع السلطة والحال هذه تحالفاً طبقياً جديداً آدار الظهر للمسألة الوطنية مقابل فتات المكاسب الاقتصادية تحت الاحتلال.

العودة للمربع الاول

واليسار الذي كان أدرك حقيقة تلك التحولات، وأطنب في الكتابة والحديث عنها، لم يتخذ لنفسه موقفاً سياسياً بديلاً، بل اندرج في المسار ذاته تحت شعار المرحلية والواقعية السياسية، فبات الحضور طاغياً لشعار «لتقرير المصير» بديلاً من شعار «التحرير»، ولدولة الضفة والقطاع بدلاً من الدولة الديموقراطية على كامل التراب الوطني. ونقطة تحول هامة سجّلها المؤتمر الثامن لـ«الجبهة الشعبية» بإعادة تأكيده على «تحرير فلسطين، كل فلسطين من النهر إلى البحر، وإقامة دولة فلسطين الديموقراطية على كامل التراب الوطني الفلسطيني»، كما أعلن البيان الختامي للمؤتمر.

والمسألة إذاً ليست في أن ضرورة العودة لشعار الدولة الديموقراطية العلمانية يأتي في سياق انسداد الأفق أمام شعار الدولة المستقلة في حدود عام 67. بل يستوجب القول بوضوح إن ضرورة العودة للشعار/ الهدف هي عودة للمربع الأول الصحيح. بمعنى آخر إن تصويب مسار الفكر السياسي، كمراجعة نقدية ضرورية، يستوجبه ضرورة الرد السياسي اليساري على المآل الذي أوصلتنا إليه قيادة اليمين للنضال الوطني من جهة، ورداً على مسار التبعية السياسية لليسار لذلك اليمين.

ولا بد هنا من تأكيد مسألة أعتقدها مهمة، يجب الربط المحكم بين الشعار/ الهدف وبين المهمة الوطنية الأهم: تحرير فلسطين. أي بكلمات أخرى إلحاق الهزيمة بالمشروع الصهيوني الكولونيالي وتجسيداته لفتح الطريق أمام بناء دولة فلسطين الديموقراطية على كامل التراب الوطني الفلسطيني. إنّ هذا الربط لا يأتي فقط من الزاوية المنطقية البديهية: تحرير الوطن قبل الحديث عن بناء الدولة الموحّدة (فياض مثلاً روّج لدولته من دون الحديث عن التحرير)، بل إنه ربط يرد على دعوتين أقل ما يوصف أنهما بهلوانيتان؛ الأولى: تلك الدعوة لضم الضفة والقطاع إلى إسرائيل لكسب المعركة الديموغرافية، وبالتالي هزيمة إسرائيل انتخابياً، هكذا وبكل سذاجة. كان قد طرح هذا سري نسبية مطلع الثمانينيات، ويعود اليوم فريق «أوسلو»، الذي يعتقد أنه يتذاكى سياسياً، فيما هو مهزوم وغبي، ليطرحه، على سبيل إحراج إسرائيل! الثانية: ما طرحه إدوارد سعيد من أن الدولة الموحدة طريقها الثقافة، هكذا الثقافة، في أحدث نسخة «إنسانية» للبيرالية المعجوقة.

وكي تستقيم الأمور أكثر، طالما نتحدث عن مراجعة نقدية، فمن المهم ربط الشعار/ الهدف بالأداة النضالية التي ستحمل هذا الهدف: مهمات كفاحية وبرامج عمل. وهنا بالذات لا نأتي بجديد على خبرة الحركة الثورية العالمية: فالجهاز يخدم السياسة لا السياسة تخدم الجهاز. على حد تعبير لينين الموفق، فبرنامج تحرري ثوري يستلزم حزباً ثورياً، وهنا بالذات، أيضاً يكمن امتحان اليسار الذي بات عليه تأكيد انحيازه إلى بناء الحزب الثوري على الأرض، وكذا إعلان برنامجه الاستراتيجي والعمل عليه. إنّ تحرير فلسطين عملية تاريخية طويلة تستوجب اشتراطات عديدة أهمّها: ربط النضال الوطني التحرري الفلسطيني بالنضال القومي العربي بديلاً لربطه بالأنظمة وأجهزة استخباراتها، والتحالف مع القوى الثورية فعلاً في العالم، لا مع أنصاف الثوريين والليبراليين على تنويعاتهم، والأكثر أهمية: بناء الحزب الثوري القادر على حمل أعباء النضال بديلاً لأحزاب الترهل والعلانية والمكاتب والفضائيات!

وللإنصاف، ينبغي الإشارة إلى أن الشعار/ الهدف بدولة فلسطين التاريخية كان ميثوقاً في برامج اليسار الفلسطيني (على الأقل الجبهتان «الشعبية» و«الديموقراطية») وإن بصيغ أخرى، ولكن هل الموضوع يكمن في تثبيت الشعار كشعار/ هدف أم في بناء الأدوات التنظيمية لتحقيقه، وفي تعبئة الجماهير بشرعيته وصوابيته، وفي نظم التحالفات التي تخدمه، وفي اجتراح السياسة اليومية التي تصب فيه؟ بقيناً إننا نعني الثاني، وبقيناً أعتقد أن على اليسار الثوري، وتحديداً «الجبهة الشعبية»، ضرورة إعادة تأكيد الوجهة التي اختطتها في المؤتمر الثامن، تأكيدها في الممارسة السياسية والنضالية والتنظيمية والتعبوية اليومية.

إذا أردنا حقاً مراجعة نقدية، فلنعتبر بالمثل اليوناني: هنا الوردة فلترقص وهنا القلعة فلتقفز. لأن مسار اليسار الفلسطيني، في مراجعاته (النقدية) العديدة، لم يفعل سوى الرقص عند القلعة والقفز عند الوردة! فالمراجعة النقدية إن أريد لها أن تكون نقدية فعلاً تعيد الاعتبار للدور التاريخي لليسار، فعلى اليسار أن يتصرف كبديل ثوري لبرنامج اليمين من جهة، وللمشروع الكولونيالي الصهيوني من جهة أخرى، لا أن يكتفي بتلك المعارضة (الديموقراطية) المفرّغة من أي بعد ثوري: طبقي وتنظيمي وسياسي وكفاحي. إنه طريق طويل ولكنه على الأقل مجرّب تاريخياً!

> هناك ما أسميه ذاك الغرق في التفكير الدولاني، فكر/ هدف الدولة المستقلة، الذي يغزو الفكر السياسي الفلسطيني منذ عام 1974 مع برنامج النقاط العشر الذي بات يتسلل ويهيمن رويداً رويداً حتى غدا بديلاً من الفكر التحرري

ما موجبات الطرح أصلاً؟

وعودة إلى السؤال الأهم: ما موجبات طرح الموضوع؟ أولاً هناك ما أسمّيه ذاك الغرق في التفكير الدولاني، فكر/ هدف الدولة المستقلة، الذي يغزو الفكر السياسي الفلسطيني منذ عام 1974 مع برنامج النقاط العشر الذي بات يتسلل ويهيمن رويداً رويداً حتى غدا بديلاً من الفكر التحرري أو التحرري بشكل أدق، ليغدو الاهتمام بشكل الدولة وتسويقها فلسطينياً وعربياً وعالمياً، ولا تستغربوا إن قلت إسرائيلياً، هو الشغل الشاغل.

أمّا ما أعتقده الخلفية الثانية التي تقف خلف هذا التفكير فهو السعي لـ«تسويق» الموقف الفلسطيني عالمياً، وحتى إسرائيلياً، إذ يعتقد مروّجو هذا الطرح أن العالم «يستوعب» فكرة الدولة الديموقراطية الموحدة، أكثر من استيعابه الحديث عن التحرير وتفكيك المؤسسات الصهيونية برمتها، ككيان ومستوطنات، وكذا فهو يقدم للإسرائيليين حلاً لا يقوم على «إرهابهم» بالحديث عن التحرير، بل على إقناعهم بالحياة المشتركة. هذه الخلفية على ما أعتقد تحركها قناعات ليبرالية، تفترض «حضاريتها وعقلانيتها» تبحث عن مفردات خطاب يقنع الرأي العام حتى لو على حساب الحق التاريخي والهدف التاريخي لشعبنا بالتحرير والعودة، فمثلاً يجري الاستعاضة عن مفردة التحرير مثلاً بإنهاء الفصل العنصري ونظام الأبارتهايد الإسرائيلي كمقدمة لبناء الدولة الموحدة، وهنا لا تغيب فقط مفردة/ هدف التحرير بل ويجري تشويه طبيعة المشروع الصهيوني كمشروع استعماري ترحيلي استيطاني إحدى ممارساته فعلاً على الأرض، وليس جوهره، الأبارتهايد والفصل العنصري.

الأخبار
al-akhbar
السبت 17 حزيران 2023 العدد 4941

المفكرة

الطفل في داخلنا

■ «ابحثوا جيداً عن الطفل في داخلكم، واصطحبوه معكم إلى محترف الكتابة لهذا الشهر». هكذا، تدعو «جمعية السبيل» للمشاركة في الحدث الذي تقيمه في 24 حزيران (يونيو) الحالي في «مكتبة بلدية بيروت العامة» في الباشورة. يُعيدنا نشاط الشهر الحالي الذي يديره علي صبّاغ (الصورة) إلى عالم الطفولة، في دعوة لـ «استعادة ذكرياتنا في تلك المرحلة المليئة بالبراءة، والشغب، وحُب الاستكشاف. سنسافر سوياً في رحلة إلى عوالم طفولتنا الصغيرة، ننبش بعمق في تفاصيلها، لنستعيد صوراً منها، من ألعاب الطفولة، إلى الأماكن والأصدقاء وغيرها الكثير»، وفق نص الدعوة الوارد في الصفحة الفايسبوكية. يشكّل محترف الكتابة باللغة العربية فرصة للتعبير عن النفس، والأفكار، والأحلام، ووجهات النظر حول مواضيع عدّة بطريقة إبداعية، «تستطيع من خلالها الغوص بجمال لغتنا العربية واكتشاف مهاراتك بالكتابة».

محترف الكتابة باللغة العربية: السبت 24 حزيران 2023 ـ الساعة الحادية عشرة صباحاً ـ «مكتبة بلدية بيروت العامة» (بناية الدفاع المدني/ الطبقة الثالثة ـ الباشورة). التسجيل ضروري. للاستعلام: 01/664647 أو 81/905628

الطاهر لبيب ضيف الحمرا

■ تنظم «برزخ»، يوم الثلاثاء المقبل، أمسية لتوقيع كتاب «في انتظار خبر إنَّ» (نشر مشترك بين «منتدى المعارف» في بيروت و«دار محمد علي الحامّي» في تونس) الصادر حديثاً للتونسي الطاهر لبيب (الصورة) الذي يزور بيروت حالياً. يقرأ الكاتب والباحث والمترجم الطاهر لبيب مقتطفات من روايته الجديدة، التي تحكي عن العاصمة اللبنانية وشارع الحمرا التي «حذفت همزته»، على أن يلي القراءة نقاش مع الحضور وتوقيع للكتاب.

احتفال توقيع كتاب «في انتظار خبر إنَّ»: الثلاثاء 20 حزيران (يونيو) الحالي ـ الساعة السابعة مساءً ـ «برزخ» (الحمرا ـ بيروت). الدعوة عامة. للاستعلام: 78/909472

ليلة لبنانية

■ في محطّته الأسبوعية في NOW Beirut، يقدّم الفنان اللبناني زياد سحاب (عود)، غداً الأحد، باقة من الأغنيات اللبنانية لأسماء شهيرة محفورة في الذاكرة، من بينهم

ملحم بركات وغسان صليبا ووديع الصافي ومروان محفوظ وجورج وسوف وغيرهم، وذلك بمرافقة فرقة مؤلفة من: فؤاد عفرا (دارمز)، إيلي تومية (كيبورد)، خليل البابا (كمنجة)، نادر مرقص (إيقاع) ورفيق عبّود (غناء). ويتألّف برنامج السهرة من: «غريبين وليل ـ مش وقتك يا هوى»، «حبيبي إنت»، «يا جار الرضى»، «يا حلوة شعرك داري»، «ترغلّي»، «عيونك جرّحوني»، «ولا مرّة»، «تعي ننسى»، «طلّوا حبابنا»، «عندك بحرية»، «سلّم عليها»، «طلّوا طلّوا الصيادي»، «جيت بوقتك»، «قتلوني عيونا السود»، «بترحلك مشوار»، «ما في ورد»، «حدا من اللي بيعزّونا» و«على بابي واقف قمرين».

سهرة لبنانية: غداً الأحد ـ الساعة التاسعة مساءً ـ NOW Beirut (شارع سليم بسترس ـ الأشرفية). للاستعلام: 01/211122

«شهرزاد» زينة دكّاش

■ بالشراكة مع مؤسّسة «أفلام»، تعرض منصّة «أفلامنا» عبر موقعها الإلكتروني وثائقي «يوميّات شهرزاد» (80 د ـ 2013/ الصورة) للبنانية زينة دكّاش، لغاية 28 حزيران (يونيو) الحالي. صُوِّر الفيلم خلال وبعد مشروع للعلاج بالدراما والمسرح مدّته 10 أشهر عام 2012 والذي قامت بتنفيذه المعالجة والمخرجة زينة دكاش في سجن بعبدا في لبنان. تظهر في هذا الشريط التراجيكوميدي السجينات اللواتي استطعن تحدّي المجتمعات التي تقمع المرأة عبر مبادرتهنّ المسرحيّة غير المسبوقة بعنوان «شهرزاد في بعبدا». خلال مسار رحلتهنّ الفنّية، تكشف لنا من يسمّوهنّ بـ «قاتلات الأزواج والزانيات ومن يتعاطين المخدّرات» قصصاً عن العنف المنزلي والطفولة المريرة والزواج الفاشل والرومانسيّة المنسيّة والحرمان من الأمومة، لتصبح تلك القصص سرديّات الفيلم الذي يأخذنا في رحلة استكشاف للذات.

«يوميّات شهرزاد»: لغاية الأربعاء 28 حزيران 2023 على «أفلامنا» (www.aflamuna.online)

مصائر

بول مخلوف

المقعد الأمامي يجاور النافذة، وهذا، بالمبدأ، سبب كافٍ ليعتليه الركاب. باستثناء المقعد الذي أجلس عليه، فجميع المقاعد شاغرة، وعلى ما يبدو لم يحجز أحد أيّ مقعد. كسوفٌ حصيفٌ في الخارج يكاد يحجب الرؤية، يُزيغ الناظر، يوهمه أن (تلك) البناية ليست عمراناً بل غسالة كهربائية ضخمة. الرواق المظلم -كما يظهر- على يميني لا يخفي رعب الرحلة، ومع مرور الوقت: سينبسط اللون الأسود، سيزداد الجوّ قتامةً، سيغطي الظلّ الوجه كاملاً، مجرد التفكير بالأمر يصيبني بالدوار... تبّاً! إن المساحة هذه مشبّعة بالشجن، تهيّج أظافر اليد المتعرّقة لحكّ الرأس، وغرس الظفر باللحم، وتمزيق الجلد، فمن الأفضل إغضاء العين.

الكرسي أمامي جامد لا يتحرك. كأن مصيره مُحدد ببقائه كرسيّاً جامداً لا يتحرك. لا نسمة هواء تزحزح ثباته، لا هزّة أرضية قادرة على زعزعة استقامته، ولا أوراق الاقتراع تنهي شغوره. هذا الكرسيّ اللعين يقلقني، ثم لم هو موجود إن لم يشغره أحد؟

من المقدّر أن الكرسيّ في المقدمة، هناك على يمين السائق، يعود إلى رئيس الجمهورية، لكن لا أحد يعرف اسمه لأن- السائق حتى- لا أحد يعرف مواصفاته (هل يحمل صندوقاً «صندوق النقد» أم بندقية صيد؟). ومن المقدّر أيضاً، أن المقاعد الخلفية تنتمي إلى «رفاقي الأوغاد»؛ من تلك المقاعد ينبع الهزء البذيء والضحك الصاخب، والتخطيط لتظاهرات وتخريب لن يحدثا، لكن لا أصدقاء لي لأن الثورة أخفقت واللوم يقع عليّ.

يمضي الباص ولا ينتظر أحداً لأن المصائر وليدة الارتحال حتى ولو كان الترحال يشترط الظلمة أو يتطلب العبور فيها. دائماً ما يكون العدم نقطة الانطلاق. الجنين يقذف من (كهف) الرحم، وهذه المقدمة تكتب في عتمة الليل. يمكننا تفسير خلو الباص من الذاهبين على أنه إيحاء من شأنه أن يكشف لنا عن مآل اليوم، عن بعض المصائر. وعلى قاعدة أن مصير الغد مرهون بما يُقبِل عليه اليوم، يبقى أن اليوم هو ما كان عليه مصير الأمس. ولأن القاعدة لا تشذّ، تبدو مصائر اليوم، بمعظمها، في رحاب التضعضع والفراغ. لا علاقة للمقاعد الشاغرة بهذا الأمر فحسب، فالإشارات حول الأزمنة القاحلة دامغة. هذا الذي يسعده الركود فيتكوّر على نفسه وينتفخ كغدة سرطانية تتضخم لتهتك كل ما يقابلها، وذلك الذي يسيل لعابه كلما قرأ نصاً عن القهوة والحليب، وبدلاً من التلذذ به وتجرّعه، يتحسّس مسدسه ويتهيأ للتصويب. ومع هذا، يبقى هنالك من يبحث عن مصيره تفتيشاً حثيثاً وتنقيباً عميقاً، ابتكاراً جديداً أو استعادةً لبريقٍ قد أطفأه الزمن، ليجعل منه نجمةً تضيء مسار غده. سنرى في هذا العدد، حكايات لمصائر متنوّعة ومتعددة، تنطلق من السياسة ولا تنتهي عند الضحك، فليزدحم هذا الباص بالركاب.

لقراءة ملحق «إنّما»

الأخبار
al-akhbar
صادرة عن شركة أخبار بيروت

■ رئيس التحرير
ابراهيم الأمين

■ مدير التحرير المسؤول
وفيق قانصوه

■ مجلس التحرير
أمل الأندري
محمد وهبة
وليد شرارة
دعاء سويدان
جمال غصن
حسين سمور

■ المدير الفني
صلاح الموسى

■ المكاتب
بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد الطابق الثامن
■ تلفاكس: 01759500 01759597
■ ص.ب 113/5963

/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/AlakhbarNews

■ الإعلانات
الوكيل الحصري 01/759500 ads@al-akhbar.com
■ التوزيع
شركة الأوائل
15ـ 01/666314 ـ 03/828381
■ الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

الأخبار
al-akhbar

السبت 17 حزيران 2023
العدد 4941 السنة السابعة عشرة
Samedi 17 Juin 2022 nº 4941 17ème année

كلمات

ملحق
أسبوعي

www.al-akhbar.com

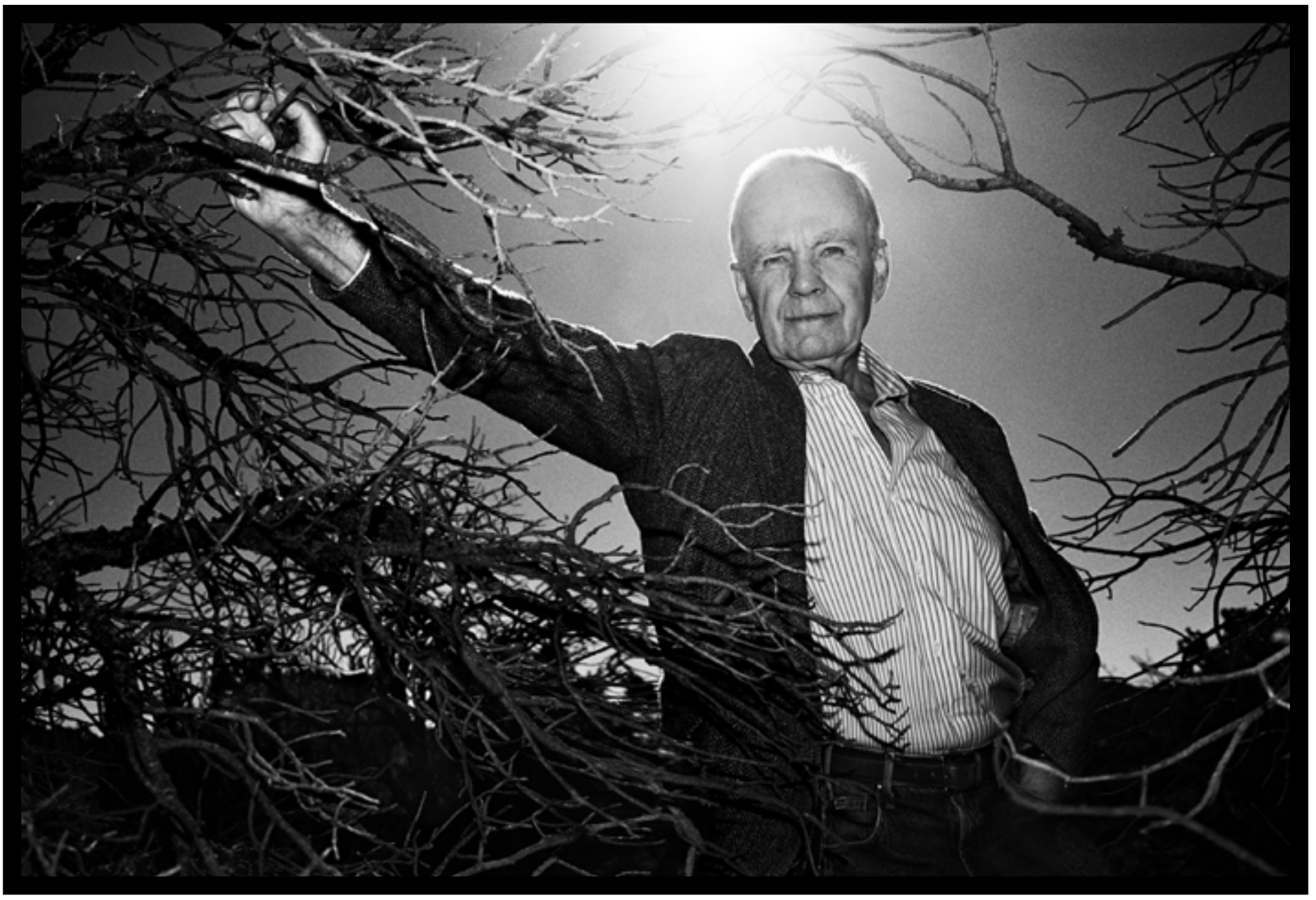

(جيم هارينغتون)

كورماك مكارثي

أميركا... سيرة للظلام

سعيد محمّد

«أن تؤرّخ لأميركا يعني أن تكتب سيرة للظلام» كانت تلك المهمّة المقدسة التي كرّس لها كورماك ماكارثي (1933 -2023) حياته وعاش من أجلها مثل نبيّ فقير متشرّد، وأُنتجت على يده في مناخات ذلك «العالم الجديد المتوحش» - ماضياً وحاضراً ومستقبلاً - اثنتي عشرة رواية، أحبّها النّقاد والناشرون الكبار، لكن لم يبع أيّ منها أكثر من خمسة آلاف نسخة قبل بلوغه سنّ الثامنة والخمسين، فوصف بـ «أفضل روائيّ غير معروف في أميركا».

لقد استغرقته الأفكار والصور، وامتصّ كإسفنجة تحولات الحياة في قلب معدة التنين الأميركي، فاكتفى بالكتابة المتأنية على ماكينة طباعة قديمة ماركة «أوليفيتي» كان يحملها معه أينما ذهب في جنوب البلاد وغربها، مع لمبة قويّة استخدمها للقراءة في غرف الفنادق المعتمة التي طرد من بعضها أحياناً لعدم قدرته على دفع أجرة مبيت ليلة. مع ذلك، رفض الانخراط في ألعاب الترويج الأدبيّ، فلم يعيّن وكيلاً أدبيّاً أو ينظّم حفلات توقيع لكتبه، ولم يطلب من كتاب مشهورين وضع تقديمات لها، ولم يتلوث بالصحافة، أو بتقديم ورشات الرواية وصياغة المحتوى، ولم يختلط بالكتّاب والمثقفين، وتجنّب بكل شكل إجراء المقابلات. لقد أتى العالم الأدبيّ إليه وأصبح في قلب التيار الرئيسي. في عام 1992، نشر أولى روايات ثلاثية «الحدود»: «كل الخيول الجميلة» حققت نجاحاً تجاريّاً وفازت بجوائز وتحوّلت إلى فيلم سينمائي، وبعدها اكتسبت «لا بلاد للعجائز» (2005) شهرة عالميّة بعدما توج الفيلم المقتبس عنها بأربع جوائز أوسكار. وتلتها «الطريق» (2006) التي حازت جائزة «بوليتزر» وانتقلت بدورها إلى الشاشة الكبيرة. لكنّه بقي بعيداً ومنعزلاً، ولم يكلّف نفسه عناء استلام الجوائز أو حضور حفلات الأوسكار، واكتفى بالعمل على المشكلات الفلسفية واللغوية كمدير لمعهد مدينة سانتا-في، لينشر بين الحين والآخر عملاً قصيراً في فضاء أدبي مغاير، لكن ضمن الثيمة نفسها في التأريخ لألوان الهمجية الأميركية حيث تضمحل الفروق بين الحياة والموت، وتتساوى أمام الطبيعة والأرباب، ضجّة جثة مقطوعة الرأس مع هدوء طفل نائم.

نصوص مكارثي تلقي نظرة قاتمة على الحالة الإنسانية في تشكلها الأميركيّ، وكانت في كثير من الأحيان مروّعة ومفجعة: قتل مهووس، وقطع رؤوس، وحرق متعمّد واغتصاب وسفاح قربى ومجامعة للموتى وأكل لحوم البشر... وصفت «نيويورك تايمز» روايته «خط الطول المدّمى» (1985) بأنّها «الكتاب الأكثر دموية منذ الإلياذة». عنده «لا يوجد شيء اسمه الحياة بدون سفك دماء» كما قال لـ«نيويورك تايمز» عام 1992 في إحدى مقابلاته المعدودة على أصابع اليد. «أعتقد فكرة أنّ الأنواع يمكن تحسينها بطريقة ما، وأن الجميع يمكن أن يعيشوا في سلام ووئام، هي فكرة خطيرة حقاً. أولئك الذين يعتنقون هذه الفكرة هم أول من يتخلّون عن أرواحهم وحريتهم. إن رغبتك في أن يكون الأمر على هذه الصيغة المتوهمة سوف تستعبدك، وتجعل حياتك فارغة».

ويمكن القول إن ماكارثي ـ أقلّه في أعماله التي سبقت شهرته ـ آخر سلالة العهد المؤسس للرواية الأميركيّة العظيمة: ميلفيل وفولكنر وتوني موريسون. كتب بجمل طويلة ومحمومة وغامضة ومفعمة بالقداسة، لكأنّك تقرأ نصاً توراتياً مهيباً بكل بلاغة النص التوراتي وذكوريّته وفظائعه الدموية.

مع تقدّمه في العمر، بدا أن أسلوبه أصبح أكثر ارتياحاً وتحرراً وأقل تشبعاً بالقداسة الفولكنريّة الطابع. وبحلول صدور «لا بلاد للعجائز»، اختفت علامات الاقتباس، وبالكاد تضمن النصّ أي علامات ترقيم.

اتّهم بعضهم مكارثي في هذه المرحلة بالشعبويّة الأدبيّة. لقد قدّم أقصى درجات الفجور الإنساني من حيث ترغب هوليوود: رعاة البقر، ومعارك إطلاق الرصاص ومطاردات عبثية، وممرات رعب، وطرائق موت قاسية. لكن هذا الإصرار على إنفاق الرواية دائماً على تقاطع الحياة والموت الأميركيّ، بدا أقرب إلى هوس صبيانيّ غير ناضج. فلا شكّ في أن العديد من البشر في تلك البلاد الشاسعة ممن لديهم قضايا ومشكلات تستحق أن تروى، ليسوا بالضرورة هاربين من المطاردة أو على وشك أن تقطع رؤوسهم. لكنّ آخرين وجدوا عبقريّة مكارثي عند تلك النقطة تماماً: أخذ حكايات مغامرات قصص مبتذلة تليق بكوميكس اليافعين وتحويلها إلى تساؤلات عميقة حول البداية والنهاية، جدلية الخلق والقيامة، والشك واليقين، وطرح نقد عميق لا خطابيّ حول خواء معنى المشروع الرأسمالي الأميركيّ برمته، هي تحديداً سرّ السحر في نصوصه. ولقد فعل مكارثي ذلك مراراً وتكراراً، ثم رحل بهدوء على فراشه في التاسعة والثمانين من العمر.

رحيل

آلان تورين... سوسيولوجي الحركات الاجتماعية

صباح 9 حزيران (يونيو) 2023 في باريس، أعلنت الوزيرة الاشتراكية السابقة ماريسول تورين عن وفاة والدها عالم الاجتماع الفرنسي آلان تورين عن عُمر ناهز 97 عاماً، لتنتهي مسيرة شخصية محورية في المشهد الفكري الفرنسي والعالمي. تورين نفسه وصف مراحل مسيرته قائلاً: «خلال الثلث الأول من حياتي الفكرية، رفعت راية التصنيع والحركة العمّالية. وفي الثلث الثاني، كنت مهتماً بالحركات الاجتماعية. وأخيراً، توجّهت المرحلة الثالثة إلى فهم الموضوع»

مصطفى شلش

الآن تورين (1925 ـ 2023) ليس عالم اجتماع سهلاً. إلا أنّ أعماله واسعة النطاق، ومنغمسة في أكثر القضايا أهميةً في العالم المعاصر والصناعي وما بعد الصناعي. وضع نفسه في مواجهة التيار الوظيفي لعلم الاجتماع والبنيوية في أميركا الشمالية وفرنسا. تطوّرت أفكاره من خلال حوار مستمرّ مع نفسه ومع المؤلفين الكلاسيكيين للفكر الحديث

تبنى موقفاً نقدياً من المناهج التي برّرت طليعة التمرد، واستبدال الفاعلين الاجتماعيين بالنخب الثورية

وعلم الاجتماع المعاصر. بقع تحليله في قلب الحياة الاجتماعية، أي صراعاتها وتحدياتها التاريخية بهدف زيادة قدرة الفاعلين أنفسهم على العمل، ولا سيما من الطبقات الشعبية. أثّرت علاقته الوثيقة بأميركا اللاتينية على تفكيره وأسهمت في منحه نطاقاً أكثر عالمية.

بدأت المرحلة الأولى بالبحث في مصنع «رينو» عام 1955 وبلغت ذروتها بعد عشر سنوات بنشر أول كتاب نظري له حمل عنوان «علم اجتماع العمل». أما المرحلة الثانية، فبدأت بأحداث مايو 1968 وانتهت في نهاية الثمانينيات. في تلك الفترة، اقترح تورين تحليل الحركات الاجتماعية الجديدة لمجتمع «ما بعد الصناعة». وفي عام 1973، نشر كتاب «إنتاج المجتمع»، تلاه في عام 1978، نشر «الصوت والنظرة». يعدّ الكتابان عمليْن مركزيين، حدد تورين فيهما أدواته المفاهيمية وطريقته في التحليل الاجتماعي. أما المرحلة الثالثة، التي تغطي التسعينيات والألفين، فتتوافق مع تقديم الفرد والموضوع كمرجع لا يمكن الاستغناء عنه في التحليل. دعم تورين هذا المنظور من خلال انعكاس تاريخي واسع انعكس في تحفة بعنوان «نقد الحداثة» (1992). سيستمر هذا التأمل في سلسلة من الكتب المهمة مثل: «ما هي الديمقراطية؟» (1994)؛ «كيف نخرج من الليبرالية؟» (1999)؛ «عالم المرأة» (2006) و«فكر بشكل مختلف» (2007).

العمل ونظرياته التحليلية

صُدم آلان تورين من الأزمة في المجتمع الفرنسي، وكان أحد المفكرين الناقدين الذين يملكون حساسية لأفكار جان بول سارتر. في عام 1948، أجرى بحثاً حول إصلاح الأراضي في المجر، وبعد فترة صعبة في أوروبا الشرقية، انتقل إلى منطقة تعدين الفحم في شمال فرنسا، حيث شارك عمال المناجم في عملهم وحياتهم.

في عام 1965، نشر «علم اجتماع العمل»، وهو أول كتاب نظري أساسي كشف فيه مفاهيمه عن نظام العمل التاريخي والطبقات والحركات الاجتماعية. في العام التالي، نشر «وعي العمّال» الذي جمع فيه أفكاره النظرية مع تحليل نتائج مسح واسع للعمّال في فرنسا. وبعد حوالي عقدين من الزمن، تحديداً في عام 1984، أجرى مع ميشال ويفيوركا وفرانسوا دوبيه تحقيقاً جديداً حول النقابية والوعي الطبقي في فرنسا، ما أدى إلى تعميق فرضيته حول صعود وانحدار الحركة العمالية. من خلال البحث في مصنع «رينو»، وضع تورين مخططاً تفسيرياً لتطور سلوك العمّال في علاقتهم بالتنظيم الفني والاجتماعي للعمل. تجسد ذلك في ثلاث مراحل:

1. المحافظة على خصائص نظام عمل التصنيع القديم، أي العمل الماهر المقترن بأدوات الماكينة (على سبيل المثال، الخراطة).
2. مرحلة الانتقال التي تتميز بخط الإنتاج شبه الآلي، الذي يوظف عدداً كبيراً من العمال غير المهرة المعينين لمهام روتينية.
3. نشر الأتمتة والقضاء على العمل المباشر.

أحد المتغيرات الرئيسية لهذا المخطط، هو استقلالية العامل، وهي قضية حاسمة تؤثر على ضمير العامل. تشكّل المراحل الثلاث أنواعاً من وعي العمل والتنظيم الذي يتعايش في العالم الصناعي وما بعد الصناعي، وترتبط مسألة الاستقلالية بفرضية أنّ العمال ليسوا مجرد ذوات سلبية في علاقات الهيمنة بين رأس المال والعمل. لا يتفق تورين مع الماركسية البنيوية التي تختزل علاقة العمل بالسيطرة، وتؤكد على حقيقة أنّ العمال يدافعون عن هامش من السيطرة في أداء عملهم ويتخذون القرارات بقدر ما تقدر الأغلبية ويكافحون من أجل تحسين عملهم. يتألف جزء من عمل العمّال في الرقابة الجماعية على أداء العمل اليومي، وممارسة الإضراب وتأكيد العامل كإنسان، وليس كسلعة.

يتحقق تورين في كتابه «وعي العمّال» من أن العمال عموماً ليس لديهم تصور سلبي لعملهم. لكن تورين يسند دوراً مركزياً لمفهوم العمل، بمقاربة قريبة من نهج كارل ماركس. فكلاهما تقوم مقاربته على أن العمل البشري في العالم غير الاجتماعي، هو عملية تحول للإنسان في الوقت نفسه مثل الطبيعة. ولا يمكن تحديد هذا التحول بشكل مستقل عن معناه المتعلق بالموضوع. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الفصل الأول من «علم اجتماع العمل» حمل عنوان «اكتشاف الموضوع». اكتشاف سيظل تورين وفياً له طيلة حياته المهنية.

الحركات الغفالية

إحدى الفرضيات الأساسية لتورين في المرحلة الأولى من مساره الفكري هي مركزية الحركة العمالية في المجتمع الصناعي. تُفهم الحركة العمالية على أنها عمل جماعي لأولئك الذين يسهمون بقوة عملهم في تنظيم الإنتاج الصناعي، ويعملون على التحكم في الاستخدام الاجتماعي للإنتاج المذكور وتوجيهه. لا تنفصل الحركة العمالية عن العداء الطبقي المحدّد حول علاقة رأس المال والعمل، وهو عداء يتمثل أفقه المشترك في التقدم الناتج عن التصنيع ويفترض وجود حركة عمّالية بمستوى معين من التنظيم النقابي للعمّال الماجورين والقدرة على استخدام وسائل الضغط، ولا سيما الإضراب، من أجل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والدفاع عنها، فضلاً عن المشاركة في القرارات المتعلقة بسياسات العمل. مع ذلك، يمكن أن تكون هناك نقابات عمالية بدون حركة عمالية.

لذا، يؤكد تورين إن ظهور الحركة العمالية لا يحدث إلا إذا اندلعت النضالات العمالية في «مجال عمل تاريخي» يتجاوز المطالب الفورية للنقابات وقدرتها على المساومة مع الشركات والحكومة. ما يعني أنّ الحديث عن الحركة العمالية يستوجب الاعتراف بوجود صراع طبقي حاسم داخل المجتمع الصناعي، وهو صراع متاصل في علاقة رأس المال والعمل. يعترف تورين بأنه يتفق مع تحليل ماركس بشأن هذه النقطة الحاسمة، على الرغم من أنه يختلف مع الحتمية الهيكلية والاقتصادية السائدة في التفسيرات الماركسية.

وشرع تورين في تعميق تحليله للحركة العمالية من خلال دراسة التناقض بين السياقات المختلفة في فرنسا وأميركا اللاتينية وأوروبا الشرقية (بولندا)، وتوصل إلى أن العامل بشكل أول حركة اجتماعية حديثة، لكن من المحتمل جداً أن لا يتبعه الآخرون، لا في رهاناته ولا في طرق تنظيمه، بل على العكس من ذلك، يجب الانتقال من عالم العمل إلى المجال الثقافي بأكمله لمحاربة هيمنة تتجاوز الإنتاج وتمتد إلى الحياة الاجتماعية كلّها: على مستوى الاستهلاك والإعلام والتعليم، ربما بتبتكر علاقات أخرى غير التبعية الفمّالية مع المثقفين والأحزاب.

الدراسة الاجتماعية لأميركا اللاتينية

بدأ تورين علاقته بأميركا اللاتينية عام 1956، عندما دعته جامعة تشيلي لتأسيس مركز أبحاث اجتماعي. أجرى دراسة مقارنة لواقعين عمليين: واقع عمّال مناجم الفحم في لوتا وعمال الصلب في هواتشيباتو، وكلاهما قريب من مدينة كونسبسيون.

وما لفت انتباه تورين في أميركا اللاتينية اليوم هو ضعف الحركات الاجتماعية على عكس أهمية ظواهر الأزمة الحضرية والهجرة الداخلية أو الدولية. فأميركا اللاتينية قارة مليئة بالأوضاع الثورية، ولكنها تشهد ثورات قليلة جداً بالمعنى الدقيق للكلمة: الثورة المكسيكية، والثورة البوليفية عام 1952، والثورة الساندينية، بينما كانت ثورة كاسترو ورفاقه أشبه بحرب عصابات ناجحة.

إذاً لماذا قلة الحركات الاجتماعية؟ برأي تورين، يكمن النصف الأول من الجواب في الهيمنة الخارجية التي توجّه الاحتجاج نحو عدو خارجي. والنصف الثاني أنّ جميع بلدان أميركا اللاتينية امتلكت، منذ فترة طويلة، قدرة إرشادية قوية للطبقة الوسطى: موظفو الخدمة المدنية، والموظفون، والعمال، والتجار، حصلوا على نصيبهم من الكعكة، التي أخذ حجمها يتزايد. في كل الحالات التي يسود فيها المنطق السياسي، يخسر الموضوع والحركة الاجتماعية والديمقراطية المعركة. هذان العاملان (الهيمنة الخارجية والقدرة على الاندماج الداخلي) وهيمنة الدولة على المجتمع، يفسران التشكيل المختصر لسياسة الموضوع.

كان تورين حاضراً في تشيلي خلال الأيام الأخيرة للحكومة الاشتراكية لسلفادور الليندي والأيام الأولى لانقلاب بينوشيه العسكري في 11 أيلول (سبتمبر) عام 1973. وفي هذا الظرف الدراماتيكي، كتب يوميات نُشرت في العام نفسه تحت عنوان «حياة وموت التشيلي الشعبية». جمع هذا الكتاب بين تحليل الوضع والتحليل العالمي للمشكلات الكبرى في تشيلي وأميركا اللاتينية.

شاهد تورين تشيلي تحترق، وعاش مع معانات الأصدقاء الذين اختفوا أو سُجنوا، فُفكراً في أسباب سقوط النظام الاشتراكي القائم وطبيعة النظام الجديد. غادر تشيلي في 24 أيلول (سبتمبر) في اللحظة نفسها التي دفن فيها بابلو نيرودا. ولم يقم بتعديل أفكار الكتاب قبل النشر ولكنه اعتبره شهادةً أكثر من كونه كتاب علم اجتماع، ووصفه بأنه كتاب فكر استقصائي حفّزه التضامن والقلق والغضب.

مع ذلك، تبنى تورين موقفاً نقدياً في ما يتعلق بالمناهج التي برّرت طليعة التمرد، واستبدال الفاعلين الاجتماعيين بالنخب الثورية، التي يدعمها ريجيس دوبريه ومارسها غوتيريز في توجهات الكنيسة في أميركا اللاتينية، ومحور هذا التفكير هو «الخيار التفضيلي للفقراء» ومنظور متكامل لتحرير جميع البشر، مع إعطاء الأولوية للمضطهدين والمهمشين. ويشير هذا النهج إلى حدود السياسات التنموية التي تحافظ على روابط التبعية وتتجاهل الطبيعة المتضاربة لعملية التحرير.

يرى تورين أنّ «لاهوت التحرير» لا يتوافق مع توجه واحد. على العكس من ذلك، لا يمكن تعريفه اجتماعياً إلا من خلال الوجود المترابط لحركتين تبدوان مكملتين لكنهما في الواقع تتعارضان بشدة مع بعضهما. من ناحية أخرى، فإن الجماعات السياسية، التي تشكلت قبل أي شيء، من قبل المثقفين، تأثرت بشكل مباشر بالماركسية وبأكثر أشكال نظرية التبعية راديكالية. ومن ناحية أخرى، فالحركة المجتمعية تعتمد على أولئك الذين هم أقل اندماجاً في التنمية. لذا يرفض تورين الحتمية الاقتصادية والقدرية التاريخية، ويركز على التعرف على الذات الإنسانية وتوسيع مجال الحرية.

الحركات الاجتماعية ما بعد العصر الصناعي

تبدأ المرحلة الثانية من مسيرة تورين الفكرية بأحداث مايو 1968 في فرنسا. في العام التالي، نشر كتاباً صغيراً ذا تأثير كبير، بعنوان «المجتمع ما بعد الصناعي» أكّد فيه كفرضية مركزية، على ظهور نموذج جديد للمجتمع ونشر حركات اجتماعية جديدة.

أكدت الدراسات الاجتماعية التي تم إجراؤها، فقدان مركزية الحركة العمالية وأظهرت ضعف الحركات الجديدة. وعززت هذه الملاحظات موقف أولئك الذين كانوا يرفضون أسس علم اجتماع العمل الذي روّج له تورين، لتطغى الموجة النيوليبرالية على مفهوم المجتمع القائم على الفاعلين المنفردين، والخاضعين لمنطق السوق والهياكل المهيمنة. في الوقت نفسه، فضل تيار المحافظين الجدد العودة إلى الأسس التقليدية للنظام الاجتماعي وتعزيز الهويات العرقية والأصولية الدينية. ولم يتوقف تورين عن مواجهة هذه المواقف، مشيراً إلى مجالات العمل الممكنة.

لم يتوقع أحد مايو 68، بمن في ذلك تورين. مع انتهاء الحرب الجزائرية، كرّس الجنرال ديغول، رئيس الجمهورية يومها، نفسه «لسياسات العظمة» الفرنسية على المسرح العالمي، ولم يول اهتماماً للمشكلات الاجتماعية والطلابية الصغيرة. كان الاقتصاد يعمل بشكل جيد، والاستهلاك في ازدهار، ولم تكن البطالة مقلقة بعد. من كان يتخيل أنّ «مجموعة صغيرة من الطلاب الغاضبين» ستسبّب تشنجاً كاملاً في الجامعة وتطلق العنان لواحدة من أكبر حركات التمرّد في التاريخ الفرنسي؟

يوضح تورين أن الحركة الطلابية ليست استجابة بسيطة للأزمة المؤسسية للجامعة، ولكنها تعبير عن صراع مركزي جديد في المجتمع، وهو صراع يتعرّض فيه الوصول إلى المعرفة والتوجه الثقافي للخطر. وكان لشهر مايو 1968 تأثير قوي على المؤسسات الرئيسية في المجتمع: المدارس والجامعات والشركات ووسائل الإعلام والكنيسة والمستشفيات والسجون. وأجبرت السلطات على الاستماع إلى أصوات الشباب والنساء والأقليات الجنسية والمعوقين والسجناء والمرضى وكل الناس الذين سحقتهم هياكل الهيمنة. فالحركة العمالية،التي كانت الحركة الاجتماعية المركزية في المجتمع الصناعي، شاركت في نطاق واسع في أحداث مايو وأعطتها القوة، لكنّها لم تقُدها. لم يحاول القادة النقابيون والسياسيون الرئيسيّون منحها مسار تمرد، وهذا ليس بدون سبب، بل لأن ظروفها السياسية لم تكن موجودة، وكان عليهم الخضوع للمفاوضات مع الحكومة. حققت هذه المفاوضات إنجازات مهمة، ولا سيما الاعتراف بالتنظيم النقابي في الشركات. ومع ذلك، كانت هذه الإنجازات أقل بكثير من توقعات العمال والطلاب الذين تم حشدهم، ولهذا السبب رفضت العديد من القواعد إنهاء الإضراب. انقسم العمال، واشتد القمع، ودخلت الحركة العمالية المزدهرة فترة استنزاف. ودفعت هذه الأحداث تورين إلى تقديم مفهوم «المجتمع ما بعد الصناعي».

إن مفهوم «المجتمع ما بعد الصناعي»، الذي يجب عدم الخلط بينه وبين «ما بعد الحداثة»، فتح آفاقاً جديدة لتفكير تورين، وجاء تعميقاً لمعنى التعبير الذي صاغه دانيال بيل، واستخدمه تورين لتعيين نوع جديد من المجتمع أخذ يتشكل منذ أواخر الستينيات في البلدان الصناعية، الرأسمالية والاشتراكية على حد سواء.

رأى تورين أن المجتمع ما بعد الصناعي يتميز بتوليد مستوى أعلى من «التاريخية»، وقدرةً أكبر وأكثر تنوعاً للمجتمع للعمل على نفسه. ولا يعني ذلك نهاية الصناعة، بل تحولها المستمر الذي يحفزه الابتكار العلمي والتكنولوجي. فالمجتمع ما بعد الصناعي، بحسب تورين، هو أكثر من مرحلة متقدمة من التطور الصناعي. إنه ظهور نوع جديد من المجتمع تحتل فيه المعرفة والإدارة التنظيمية والثقافة مكانةً متميزة. في هذا المجتمع، لا يختفي الصراع بين رأس المال والعمل، لكن الحركة العمّالية تميل إلى أن تكون مؤسسية من خلال النقابات والتشريعات العمالية، وفي الوقت نفسه تفقد مركزيتها كعنصر تاريخي فاعل في المجتمع ككل.

لذا، إنّ سمة الصراع الاجتماعي في مجتمع مبرمج، هي أن الطبقة الحاكمة تبدو كأنها تسيطر على جميع مجالات الحياة الاجتماعية، ما يمنع المسيطر عليه من التحدث والتصرف على أساس الاستقلال الاجتماعي والثقافي. إنهم مجبرون على معارضة الهيمنة الاجتماعية باسم ما لم تُسيطر عليه بعد أي طبيعة. وهذا يدل على أهمية التيار البيئي الذي يدعو إلى الحياة ضد الإنتاجية وضد أخطار التلوث النووي. وهذا يفسر أيضاً أهمية الحركات الاحتجاجية التي تقوم على مكانة بيولوجية لا اجتماعية: الأنوثة والشباب والشيخوخة أيضاً والانتماء إلى مجموعة عرقية وحتى الانتماء إلى حد ما إلى ثقافة محلية أو إقليمية.

في كتابه «إنتاج المجتمع»، عمّق تورين منهجه، مؤكداً على مفاهيم التاريخية والحركة الاجتماعية. وحجته هي أنّ التاريخية - التي نُفهم على أنها قدرة المجتمع على تحويل نفسه - تستلزم وجود صراع بين الفاعلين الذين يريدون السيطرة على التوجهات الأساسية للمجتمع أي: التراكم، وطريقة المعرفة، والنموذج الثقافي. ويرتبط مفهوم الحركة الاجتماعية بمفهوم الطبقة الاجتماعية، أو بالأحرى العلاقات الطبقية. يفهم تورين الحركات الاجتماعية على أنها عمل مُضاد للطبقات الاجتماعية المسيطرة والمهيمنة، التي تناضل من أجل السيطرة على نظام الفعل التاريخي.

ويتميز مفهوم الحركات الاجتماعية في المجتمع الصناعي بالحركة العمالية. لكن في المجتمع ما بعد الصناعي، يصعب تحديد محور الصراع الذي يحدد الطبقات والحركات الاجتماعية: الطبقة الحاكمة (التكنوقراطية أو البيروقراطية أو النخبة السياسية) من ناحية، والطبقات المحكومة من ناحية أخرى (لم يتم تحديد العمال بأجر والمستهلكين والمستخدمين بشكل واضح)، إذاً ما هي حركات المجتمع ما بعد الصناعي الناشئ؟ يقترح تورين نطاقاً واسعاً، يشمل النزاعات حول إدارة المنظمات المعقدة، والتطور العلمي والتكنولوجي، والتعليم، والجامعة، والصحة، والبيئة، وحقوق المرأة.

الحداثة والموضوع

في المرحلة الثالثة والأخيرة من مسيرة تورين الفكرية، نشر تفكيره حول ما يسميه «الموضوع». احتل هذا المفهوم دائماً مكاناً مهماً في فكره، مشكلاً اليوم حجر الزاوية، بمَ يتكون الموضوع؟ كيف يختلف عن الفرد؟ ما علاقته بالمجتمع؟ ما هو الدور الذي يلعبه في الحياة الاجتماعية؟

في أوائل التسعينيات، نشر تورين

> توصل إلى أن العامل يشكل أول حركة اجتماعية حديثة

رائعته «نقد الحداثة»: كتاب ضخم عبارة عن فحص متعمّق لأفكار التي سادت العالم الغربي لأكثر من ثلاثة قرون، والأفكار التي يتم التشكيك فيها وإعادة تعريفها إلى اليوم. يُظهر تورين أن الحداثة، في أكثر أشكالها طموحاً، تتمثل في إعلان أنّ «الإنسان هو ما يفعله». لقد استجابت الحداثة لإرادة التحرر من الروابط التقليدية ونشر القدرات بفضل العلم والتكنولوجيا والترشيد وفق قوانين موضوعية. لكن تورين لاحظ أنّ الحداثة لا تُعرَّف فقط من خلال الهيمنة المتزايدة للفكر العقلاني ولكن أيضاً من خلال تأكيد الشخص البشري. وتُبنى الحداثة من الفصل بين العالم الموضوعي، الناتج عن العقل وفقاً لقوانين الطبيعة، وعالم الذاتية، الذي يشير إلى الفردية والحرية الشخصية.

وجد تورين تقارباً مع موقف ديكارت «الثنائي»، حيث تصور الحداثة على أنها فصل متوازن بين العقل والموضوع، مع إعطاء أهمية كبيرة للعقل كما للموضوع. سلط تورين الضوء على العواقب الدراماتيكية للانفصال شبه الكامل بين عالم العقلانية الأداتيّة وعالم الهوية الذاتية. وجادل بأنه يجب علينا إعطاء وزن أكبر لفكرة الخضوع.

لاحظ تورين أن جميعنا اليوم منغمس تقريباً في الحداثة أو نطمح لأن نكون جزءاً منها، لكن هذه الحداثة هي أيضاً موضع تساؤل. يبدو أن صورتها الكلاسيكية، المبنية على معركة ضد التقاليد، تم تفسيرها على أنها انتصار العقل على قوى الطبيعة والمصير، وباعتبارها غزو الكونية ضد الخصوصيات، التي بدت كأنها تتحلل. ترتبط الحداثة الآن بتفكك معنى الحياة، والتدفق الاقتصادي، والسلطة بدون مركز، وغياب الفاعلين الاجتماعيين، ويُنظر إليها على أنها تهديد بالاستبعاد الاجتماعي وفقدان الهوية.

قاد هذا التحليل تورين إلى البحث عن أسس حداثة جديدة لتأكيد الذات: الذات التي تحاول تعريف نفسها على أنها فاعل، بعيداً من القوى التي تهيمن عليها. وفّر هذا النهج مفتاح التحول الحاسم للحداثة. إن تأكيد الموضوع لا يعني تجاهل أهمية العقل. أكّد تورين أن الحداثة تقوم على نهج مزدوج من أصل مسيحي، على الفصل بين نظام المعرفة الموضوعية وتلك الخاصة بالموضوع. فالديناميكية الحديثة ناتجة من التوتر وإمكانية الحوار بين كلا النظامين. وليس مناسباً تشويه الواقع الحديث المعقد والخصب من خلال اختزاله إلى العقلنة بشكل عام أو إلى شكله المقيد للعقل الأداتي؛ ولا نفهمه على أنه ذات بحت.

لا تستند الحداثة إلى مبدأ واحد، ولا إلى مجرد تدمير عقبات حكم العقل. إنها مصنوعة من حوار العقل والموضوع. وبدون الذات، يصبح العقل أداة قوة. لقد عرفنا في هذا القرن دكتاتورية العقل والانحرافات الشمولية للذات.

يطور تورين مقارباته الخاصة. يطرح الحاجة إلى إعادة تعريف الحداثة كعلاقة محمّلة بالتوترات بين العقل والذات. يوضح كيف أن العقلنة بحدّ ذاتها لا تعطي معنى للفعل البشري، بل ترتبط بتأكيد الذات، بتدخلها التحريري والإبداعي. فالحوار بين العقل والذات هو المفتاح للتغلب على تجزئة الحياة الحديثة، وإعطاء معنى للحياة الشخصية والجماعية، وبناء العلاقات التي يمكن ممارسة الديمقراطية على أساسها. فالموضوع هو أساس الحركات الاجتماعية. وبالاعتماد على فرويد، خصّص تورين جزءاً مهماً من تحليله لفحص عملية تكوين الذات البشرية، لـ «الأنا» نفسها. حلّل مظاهر الذاتية - السلبية والإيجابية - في مختلف السياقات الاجتماعية الحالية، مع التركيز على قضية الهوية والدين، وخصّص فصلاً أخيراً للديمقراطية. كانت هذه رسالة تورين والمفتاح الذي مثل بداية جديدة وفتح آفاقاً جديدة لعلم الاجتماع. فتورين لم يحصرنا في نظرية جامدة، بل شجعنا على توسيع نظرنا؛ وعدم اختزال المجتمع إلى آدائه وأزماته؛ ولا تجاهل الموضوع، أي الشخص البشري الذي تم تكوينه كفاعل. نهج تورين المعرفي مثل ترياقاً للتشاؤم والعقائد الفكرية وحافزاً للتفكير المشترك.

يتقارب فكر تورين ومنظور التنمية البشرية الذي صاغه أمارتيا سين على أساس توسيع الحريات والقدرات وممارسة حقوق الناس، وليس فقط في نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي. كما يتقارب مع لاهوت التحرير لغوستافو غوتيرين، بمعنى «التحرر من كل ما يحد أو يمنع الرجال والنساء من تحقيق أنفسهم، من كل ما يمنع الوصول إلى - أو ممارسة - حريتهم». أخيراً، علم اجتماع تورين للعمل، والمنظور المتجسد في مفهوم «العمل على الذات» الذي طبّقه على كل من المجتمع والمواضيع الفردية، هما دعوة قوية لتولي منظور الذات والفاعل البشري في خضم هذا الانفعال التاريخي، حيث أصبحت التاريخية فئةً أساسية لفهم الديناميكيات غير العادية للإبداع البشري في التاريخ الذي نعيشه، وتوفّر لنا أداة للتفكير الدائم في الصراعات والتحديات الرئيسية في عصرنا.

ألّرت علاقته الوثيقة بأميركا اللاتينية على تفكيره

فصول من رواية

ماريو بينيديتي: من منّا يستطيع أن يُصدر حكماً *

ماريو بينيديتي أبرز كتّاب الأورغواي بعدَ مواطنه إدواردو غاليانو. ميزته أنّه، على العكس من رفيقه، متعدّد المواهب، إذ كتبَ في كلّ الأجناس الأدبيّة. ولد في مدينة باسو دي لوس تورروس عام 1920. انتسب إلى الحركة الأدبيّة والفكريّة «جيل 45 »، التي استقطبت جلّ قصاصي الأميركيتين الوسطى واللاتينية آنذاك، وكان من أبرزهم كارلوس أونيتي وروا باسطوس. كما أسهم في تأسيس موجة ما صار يسمى في ستينيات القرن الماضي بـ «الأدب الأميركو لاتيني الجديد» مع ماركيز، كورتاثار، يوسا، فوينتيس ورولفو. اشتغل محرّراً في جريدة «مارشا» الأسبوعية الواسعة الانتشار في مونتفيديو. خلال فترة الحكم العسكري في بلاده، عاش لاجئاً في الأرجنتين (1938-1941). وفي عام 1973، يُرغَم مجدداً على عيش تجربة المنفى لمدة 12 سنة، متنقلاً بين الأرجنتين، كوبا، البيرو وإسبانيا. مع عودة الفاشية العسكرية إلى الحكم في بلاده (1973-1985)، أُجبر على المنفى من جديد. نحن هنا أمام حالة فريدة لكاتب لم تغيِّر هذه الهزّات قناعاته اليسارية أبداً، بل ظلّ يدافع عنها حتى عندما تخلّى عنها أقرانه، وفضّل دوماً العيش في بلده كلّما توفّرت فيه أدنى شروط الاستقرار والحرية. حاز بينيديتي العديدَ من الجوائز وتوفي في مونتيفيديو عام 2009. من بين أعماله، في القصة القصيرة: «هذا الصباح» (1949)، «بالحنين أو بدونه» (1953)، «الهدنة» (1960)، «شكراً» على إشعالك سيجارتي (1965)، «ربيع في مرآة مكسورة» (1982)؛ وفي الشعر: «المنزل والحجر» (1977)، و «دفاع عن النفس» (2004).

يستند الكاتب، في هذه الرواية التي اجتزأنا منها فصولها الأولى للقراء، إلى التكنيك السردي المتمثّل في تنويع زوايا رؤية نفسِ الحدث من طرف شخصيات ساردة مختلِفة، ضمن ثيمة مثلث الرغبة: ثلاث شخصيات تبَوَّبُ بأسمائها فصول الرواية، بثلاث وجهات نظر حول حكاية تنسج تاريخ سوء الفهم في قصة حب: ميغيل، أليسا، لوكاس. شخصيات تحكي رغباتها المكبوتة وأسفها إزاء سلطة الحب، وارتهانها لسوء فهمها للذات في علاقتها بالعالم. تتداخل العوالم النفسية للشخوص وإدراكها لمزالقها السلوكية. يصف بينيديتي بصدق محيّر أفعال ومواقف شخصياته، وكذا مخاوفها وتناقضاتها الذاتية والموضوعية في علاقاتها المتشعبة، المحاكة بالشكوك والتوترات والحنين، والمرتبطة بالأحداث، من خلال إعادة بناء لما كان قصة حب فاشلة بين أليسيا ولوكاس. تتميز هذه الرواية القصيرة والمثيرة في شكلها الأصلي، بجمالية على مستوى أسلوبها الشعري وذائقتها الفنية العالية. إنّها تحفة من الفروق الدقيقة التي شيّدت بذكاء وعمق ملحوظ. تبدو الحياة مليئة بالإخفاقات المثيرة، والوجود الذي استطاع أن ينجو من فخّها بالحب ووهمه اللذيذ، ضد يباب العواطف وحرارة اللقاء المؤجل، والحلم الذي ينتظر نهاره المستعاد بالكلمة.

تقديم **رشيد وحتي**

ترجمة **مصطفى مجاهد**

I

اليوم فقط، بعد خمسة أيام، أدركت أنني لست واثقاً من نفسي بعد الآن. مع ذلك، فإنه في يوم الثلاثاء الماضي، عندما ذهبت إلى الميناء لتوديع اليسيا، كنت مقتنعاً بأن ذلك هو أفضل الحلول. في الواقع، كنت أرغب دائماً في ذلك: أن تواجه ندمها، وطريقتها السيئة في تأجيل ما كان يمكن أن تكون عليه، وحنينها إلى ماضٍ آخر، وبالتالي إلى حاضر آخر. ليست لدي أدنى ضغينة، ولا يمكنني الشعور بها، لا نحوها، ولا تجاه لوكاس. أودّ فقط أن أعيش في سلام، بعيداً عن هذا النوع من الأشباح الذي يحضر في عملي، في حياتي وجسدي. في المساء، بعد العشاء، عندما نتحدث عن مكتبي، وعن الأطفال ومدبرة المنزل الجديدة، كنت أعلم أنها ستقول لنفسها: «يمكن أن يكون لوكاس بجانبي بدلاً منه. مع لوكاس، على الأقل، لن نحتاج إلى الحديث».

في الحقيقة، لقد كانا دائماً متشابهين. كانا يتشاركان الاهتمام ذاته في أشياء معينة - حتى عندما كانا يتشاجران بطريقة عنيفة، ويلجان إلى صمت طويل - ويتصرفان باتباع هذه المشاركة العفوية التي تحاصرنا جميعاً (الأشياء، الأصدقاء، العالم) بعيداً منهما، في اللامبالاة. فأنا وهي نشكل بإصرار تركيبة أخرى، حيث كنا بحاجة إلى التحدث. إن حماية الصمت غير موجودة بالنسبة إلينا، بل أود أن أقول إن حديثنا حول التفاهات الشخصية أو غيرها، يحمينا من هؤلاء البيض الرهيبين، خلال ميلنا إلى النظر لبعضنا البعض، والهروب من أعيننا، حيث لا ندري أثناءها ماذا نفعل بصمت الآخر. فخلال هذه الفترات، يكون وجود لوكاس أمراً لا يطاق وكل إيماءاتنا بما فيها الأكثر اعتيادية - النقر بأطراف الأظافر على الطاولة، والضغط على المفاصل من أجل طقطقة الأصابع - أصبحت استعمالاً مضمراً، من كثرة تجاهل حضورنا، ينتهي بها الأمر بوضع خط تحتها، ومنحها مصداقية مؤلمة، تتجاوز الجسد، في شحذ أذهاننا.

عندما أرى أديليتا أو مارتان يلعبان بهدوء فوق السجادة، وأنها تنظر إليهما أيضاً، وترى، كما أراها، كظل من الابتذال الذي يجمع وجهيهما الصغير شبه المثالي، قبيحاً، أعلم أنها تقاوم أكثر أو أقل وبوعي الضوء الداخلي واللمسة الفكرية التي يمكن أن تتمتع بها هذه الوجوه، لو كانوا أطفال لوكاس وليسوا أطفالي.

على الرغم من كل شيء، فأنا أحب الجانب المبتذل لأطفالي، كما أحب حقيقة أن لا يلقوا قصائد لا يفهمونها، وأن لا يطرحوا أسئلة حول مواضيع لا تهمهم، وأن لا يتأثروا إلا بأشياء مباشرة آنية، وأنه لا الموت ولا الروح، ولا الأشكال المنمنمة للوجدان، لها أهمية لديهم. وسيكونون، واقعياً، وقحين في أسوء الأحوال (أفكر خاصة في مارتان)، لكنهم ليسوا متبجّحين، ولا أصليين بأي ثمن، وهذا يرضيني، حتى لو كان عليّ الاعتراف بحماقة وجبن هذا الانتقام الخجول والعقيم.

II

الأسوأ من ذلك كله، أنني لا أشعر بأدنى قدر من الكراهية التي ستكون بالنسبة إليّ خلاصاً. وأحياناً أندم على ذلك، وأحكم عليها كنقيض للسعادة. لكنهما كانا على صواب جداً معي، لقد أقاما، بالاتفاق المشترك وغير الواعي، قانوناً صارماً للتخلي لدرجة أنني أضع نفسي في الكراهية، والتي ستكون أسهل طريقة في عيونهما كشخص بغيض بشكل لا يمكن إصلاحه، سيصيحان، إذا زرعا أمامي كل الابتسامات: «لقد جعلناك زوجاً مخدوعاً، أيها العجوز».

أعتقد أنني أستطيع أن أمل أنه إذا مارسا الجنس يوماً ما، فسأتنحى جانباً قبل فترة طويلة، كما أنني مقتنع أنهما يتمنيان لو جاء يوم ما لا أستطيع تحملهما أو تحمل نفسي فيه، لكي أخبرهما فقط بأن الأمر انتهى، بدون أن تكون هناك حماقة يمكن مناقشتها. في هذه الأثناء، حتى لو لم يكن يبدو كذلك، فإن الأمر يشكل توازناً حقيقياً. تقدم اليسيا، بطريقة حانية ولطيفة، المداعبات التي تطلبها منها، أنا والأطفال. لكن الأمر يشبه إلى حد ما كما لو أننا صنعنا هذا الرابط مسبقاً، وكأنها قامت بتبنينا، وأنها الآن تجهل، أين يمكنها أن تتخلى عنا، ولمن تُهْدِنا. وبما أنها تحاول إخفاء ما تقدمه لكي تبدو طبيعية، فأنا أشكرها، كما أنها تشكرني بدورها جراء شكري لها.

من جانبه، انسحب لوكاس بتكتم من مكان الحادث، ولكن ليس بالشكل الكافي، لكي يصبح غيابه موضع شك. لهذا يكتب لنا رسالة كل أسبوعين، حيث يخبرنا بالتفصيل عن حياته كصحافي، ومشاريعه الأدبية، وعمله كمترجم. ذلك هو السبب الذي جعلني أكتب له بدوري رسالة كل أسبوعين، أعبر له فيها عن رأيي السياسي، وتذمري من وظيفتي، وتفاصيل حول التحسن المدرسي لمارتان وأديليتا، رسالة تنتهي دائماً ببضع كلمات اليسيا على الهامش: مشاعري اللطيفة لصديقي لوكاس.

III

كثيراً ما كنت أتساءل عن نفسي في صفحات هذا الدفتر. ومن أجل قول الحقيقة بدقة، أنتهي بي الأمر إلى تقييد طموحاتي. في وقت ما، اعتقدت أنني ذكي، ذكي جداً، كان ذلك في فترة حصولي على نتائج استثنائية بالمدرسة الثانوية، حيث يعلق والداي، للحظة، صراعهما المستعصي، بالنظر إلى بعضهما البعض، وهما راضيان عن نفسيهما، ويقبلانني، وهما مقتنعان بأنني سأجد استثماراً جيداً. ثم جاءت لحظة التوقف عن الدراسة، من أجل وضع ما تعلمته ببراعة، موضع التنفيذ، وأظهرت نفسي تماماً أنني غير قادر على إجراء أي تقييم، والاحتفاظ بادقّ الحسابات، أو الاعتراض على أحد بنودها. وبالطبع، مع مرور الوقت، انتهى بي الأمر إلى اكتساب هذه المهارات، لكني لست مديناً بذلك لذكائي الهابط، وبالأحرى إلى ممارسة عنيدة وشاقة. كان هناك وقت أيضاً، كنت أعتقد فيه أنني قادر على اختبار وتذوق إحدى الهوايات المذهلة التي تبرر وحدها حقيقة الوجود. ظننت أنني شعرت بها مرتين أو ثلاث مرات تجاه النساء المسنات اللواتي من المتوقع أن يعاملنني كطفل، وإظهار اهتمامهن أكثر تجاه نظرياتي بدل هطول المطر. وقد أزعجني ذلك كثيراً لدرجة أنني ابتعدت عنهن، على أمل مضاعف في جذبهن نحوي، ثم صدّهن. لا واحدةَ منهن، بالطبع، أخذت الأمر بشكل مأساوي، ولا أنا كذلك، حيث ينتهي بي الأمر إلى نسيانهن. بعد فترة طويلة، أدركت أنّ أياً من هذا لم يكن موجوداً، وأن ما يسمى، بشكل عام، بالشغف، تتم إذابته قبل أن تطالب به أي من هؤلاء النساء. ينطبق هذا أيضاً على اليسيا. لكن حكاياتي معها أكثر تعقيداً، وبدون شك، يكون من الأفضل معالجتها بشكل منفصل.

لذلك، بعد أن فقدت الأمل في الاعتقاد بأنني ذكي أو شغوف، لا يزال لدي ذلك الذي يعتبر أقل غروراً، ويعلم أني صادق. هذا هو السبب الدقيق الذي جعلني أشرع في إعداد هذه المذكرات، وهي شهادة موضوعية أعاقب فيها نفسي على رداءتي. من المؤكد أن العالم يزخر بناس تافهين، لكن بالطبع، لا يوجد أناس مبتذلون يعرفون الوجود. فأنا أدرك ذلك. أعترف أيضاً أن هذا الكبرياء السخيف، لن يجلب لي شيئاً، إن لم يكن اشمئزازاً رهيباً من نفسي.

باختصار، من أين أتت تفاهتي؟ بمادّا أو بمن يمكنني قياسها، ومقارنتها؟ حقيقة أني اكتشفتها في أفعالي، في نوايايَ، و حماقاتي، ولا يعني ذلك عداء موجهاً بشكل خاص ضد شخصيتي. في اعتقادي، لا يبدو الآخرون رائعين بالنسبة إليّ أيضاً - إن لم يكن وجود عدد قليل من الاستثناءات الافتراضية. بل أود أن أقول أكثر: يبدو أن الجميع تافه بالنسبة إليّ، لكن ذلك لا يثبت شيئاً، إلا إذا كان يعبر عن تصوري للتميز الاستثنائي، والمذهل، وهو ما يعتبر عكس ذلك، لأنني أفترض أنه بعيد المنال. وبالتالي؟ وبالتالي لا شيء على الإطلاق.

IV

أخشى أن تملأ مذكرات يوم الأحد المزيد من الصفحات أكثر من المعتاد. لا تزال اليسيا في بوينس آيرس، بينما مارتان في السينما، في حين ذهبت أديلينا لزيارة جدتها. السماء المرادية المنخفضة التي اقتحمت نافذتي، تبقى بدون فائدة أيضاً، إنها سماء بلا إله ولا شمس، كما أنها تسطيح ملحوظ لم يبهرني أبداً، بينما السماء الأخرى، المشرقة، المضيئة التي تمثل عطش الحياة، والأفلام المولونة، ما هي إلا بلاغ كاذب، إنها سمائي التي يجب أن أقبلها على هذا النحو. ساكتب طوال فترة الظهيرة، منغمساً في هذه العزلة المدهشة، لأنني أشعر بحالة جيدة، كما أحب تسوية أموري الشخصية، وأصبح على دراية بمعظم الملاحظات الأكثر أسى بشأني، باختصار، أن أعرف نفسي بشكل أفضل.

أحياناً، أتساءل عما إذا كان هذا القلق في استجواب ردود أفعالي الخاصة، لن يؤكد اعتقاداً قديماً لأليسيا: حقيقة أنني أناني في حالة العود. فبالنسبة إليها، يجب أن يكون هذا واضحاً بشكل ملموس للغاية، لدرجة أنها تعتبره من الأمور غير السارة لكي تعترف لي بذلك. إني أقدر لباقتها، ولطالما أعجبت بها، وبصراحة، فأنا أجهل ما إذا كان من الأفضل أن تكون غاضبة مني، وأن تهينني وتنفجر في لومي وشتمي، قبل أن تجهش بالبكاء، وفي نهاية المطاف، هناك حياة مختلفة بالخصام والبكاء، وشظايا من كل نوع، ستكون غير معتادة، وغريبة جداً بالنسبة إلينا. أتذكر كم فاجأني وجه اليسيا عندما مات والدها. لم أرها تبكي أبداً، خاصة في هذه الظروف، حيث فقدت هدوءها، واستسلامها البائس، وعجزها الرهيب، الذي أضعف توترها المعتاد، حيث بدت حقاً كطفلة عزلاء، مستكينة بين ذراعي بشعرها الفوضوي الذي يخفي وجهها، تفيض بالمرارة. بالطبع، لقد كان مجرد خطأ، حيث أخذت السنوات الخمس الماضية، على عاتقها لتصحيحه، وقد أقنعت نفسي بأن الأمر كله كان مجرد فشل مؤقت، وخدعة لا يمكن تفسيرها، كما أنها غريبة تماماً عن جوهرها العميق.

V

إذا تمعنا جيداً، ربما تكون هذه فرصة رائعة للإخبار عن كل شيء، انطلاقاً من الحاضر الذي يكشف لي اليوم عن رغبات قديمة. والأسوأ من ذلك، عن غياب قديم للرغبة. ولكن من أين نبدأ؟ ما هي أولى ذكرياتي؟ ربما بدأ كل شيء قبل ذلك بكثير، عندما كنت ذلك الطفل الذي عجزت ذاكرتي عن تحريره. أشعر بغيرة شديدة من هذا الطفل، السجين في غياهب النسيان الرهيب، الضائع إلى الأبد، على الرغم من أنه يتجلى لي الآن في الصور المؤثرة، وهو يلعب مع الكلب، أو بلا حراك يرتدي بدلة بحار جديدة، يحمل بين ذراعيه، بشراسة، دمية دب، ولعب أطفال، مطبخاً وكرسياً.

وهناك، كما يبدو لي، يوجد السر، في هذه النظرة المتنافرة مع الرجل الذي أنا عليه اليوم.

(*) فصول من رواية بالعنوان نفسه، صدرت حديثاً عن «سما للنشر والتوزيع/ مقديشو ».

قصائد

دمِ الفراشات

اندريه بيكر ـ «قايين وهابيل» (زيت على كانفاس ـ 2007)

محمد قشمر *

1- نهر العسل

كلّما حطمتُ لعبةً
وبكيت
واسيتُ نفسي:
«في الجنة سيجمعني الله باللّعبة ذاتها».
أرجوكِ
أيتها الحياة
لا تطلبي من الله
أن أكونَ ديّا قطنياً
يُهرقُ كفّيه
ليَسقيكِ
من نهرِ العسل!

2- بالأمس زارنا المهدي

ليلة الأمس
ونحن نيامُ
زارنا المهدي
فزّت الملاعقُ من الجوارير
تدافقَتِ الصحون
كادت شوقاً تنكسر!
سبقتها ركوةُ القهوة
استقبلتهُ عند الباب
مع غُشّاقها الفناجين،
أجلسَته نبتةُ «المِنشار»
في غرفةِ الصالة.
تقاطرَ ماء المغسلة احتفالاً
عاد الرمادُ حطباً في المدفأة
تلا التلفازُ سورة النّصر
الملحمةُ قرأت دعاء الفَرج
ولمّا أمّ الصلاة بالسّكرية
اندلقَ حُبّاً
إبريقُ الزيت!

3- سورة الرحمن

سورةُ الرحمن
عيدانُ حبقٍ
تسكن
حقيبة أمي الصغيرة
أشمُّها كمفتاح
يُبرزخُ روحي
من قيودِ الضّباب

4- آخر السطر

أدري
روحي سِلكُ شائك
حقل من الآلام والحنظل!
حينما تحجُرُني
بنقطةٍ آخر السطر
اقطفني بدمعتك
كما لو كنت رُمّانة مباركة
قرب ثمرة الزهراء
خذني
كما لو أن النبيّ
يحملُ الحجرَ بنفسه
هديّة
لحفيده المقتول!
أعرف أنّي
ذيلُ عقرب
وشوكةٌ من الحسك
خذني
كما لو أنّي
نورسٌ رحيق
من اللوتس الهوائيّ!
رُحماك
ضع لي نجمة
آخر السطر!

5- نسب

أمي عصير عشبة القمح
و أبي جذور شعير نابتة
في تلّةٍ احترقت
قبل عامين
و أنا ملحٌ أسود
تجمّعُني هندبةٌ عجوز
في جبلٍ بعيد
خلف المدينة الزرقاء!
دمي
أرقطيونٌ سائل
قطّرته عصفورة التين
في جامٍ نبي مذبوحٍ
بخنجرٍ ملكوتيّ!
جَلدي
دمعةُ الصّبار
قفيرُ العكبر المعسول
مصحفٌ غارقٌ
في سيول الحرب
كلّما حاول الوحي انتشالي
ثارت جائحة الغبار
من يبصرُ دمعةً في الوحل؟

6- امنية

لو أنّ قابيل
مسح وجه هابيل
بقالب حلوى
صنعتهُ حواء
من تفاح شجرةٍ
سجَد إبليسُ
تحتها لآدم،
لكان عصير الفراولة
يملأ هذه الأزقّة
بدلاً من دمِ الفراشات!

* لبنان

سرد

أقصوصتان

علي سعيد ـ «عشبة الخلود» (زيت على قماش، 2021).

أبو يوسف طه *

1. الزهرة السحرية

عمر الزهرة قصير لكن الزهرة المغروسة في أصل الذاكرة لا تذبل إلا بموت غارسها عدا إن كان شاعراً من طرازٍ رفيع حيث تنتقل إلى مأواها الدائم، أصل الرموز.

هذا ما قالته العاشقة النائمة، في الحلم، لعشيقها ثم أردفت قبل أن يوقظها زوجها: «بُسْتني مثنى وثلاث ورباع ».

2. سيرورة الزمن

استخبرتُ والدتي عن ميلادي، عيَّنت المنزِل، كان صغيراً جداً كقفص يليق بعصفورين، اختلط عليها الأمر، قالت: وُلدتُ هنا في هذه المدينة، مرضتُ وأنت رضيع، ارتحلنا إلى المدينة الأخرى، في القطار تعافيتُ. وفي مرة أخرى، قالت: ولدت في المدينة الأخرى، مرضتُ، قال أبوك: سافري ليُدفنَ في المدينة هناك.

سأكون أكثر حرَماً وأنا أعبر الطريق لألتقي بوالدي الذي توفي منذ عقد. حتى ولو كنت أغط في نوم عميقٍ فإني أسير، يؤكد الحلم ذلك فالزمن يتدفق داخلي كالجدول، أعبر مسافات وأتجول في أمكنة لم أشاهدها من قبل، لا مجال لتعقيل الزمن وتثبيت الأمكنة في أمكنتها، الكل يتداخل، يناى ويدنو، يتقدم ويرتد ثم يرق ويشف ويتلاشى. أخطو بعنت في أرضٍ متحجرة ثم مترية، أشعر بعياء وأنا أصعد الجبل، ترعبني المهاوي الكثيرة، أشرطة المرور الضيقة، أقف في القنة لأنحدر إلى الجهة الخلفية للجبل حيث قال والدي إنه هناك، في مدفنه ينتظرني ليخبرني عما لقي في مُقامه. لم أعد أرى شيئاً، قد عميت، سأبقى هنا إلى الأبد.

* مراكش/ المغرب

بالدّخان يمحو نفسه

هلال أشرف *

كلماتي لا تنتشر في هذا المكان المُفرغ من المحبّة
وإن تجاوزَ صوتي المُتهَدّج جغرافيته فإنه لا يتعدى
باب منزلي الصّغير الحزين
تترقرقُ الدّموع في عينيّ كشرارةِ النّار
أو مثلما تساورني طفولتي
كي تسألَ عن الأغنيات العتيقة،
وتتآكد من توسّدها الأشعار المُعتمة
من استمرار رنينها في ذهني الفاني
أو خلال الأصوات المنزليّة المُفزعة
حبستُ نفسي في روائع الماضيّ
لعلّها تعود لأركضَ في حدائقها وأنتظر الحنان!
أتخلّصَ من الحقيقة الثّابتة أمامَ عينيّ
حقيقة أن الآخرين يكرهونني
الموت هو ما يناسبني
ولن يحبّني أحدٌ أو ينتظرني غيره.

■■■

كلماتي بحاجةٍ إلى الخروج من حجرتها
لكنها لا تصل إلى المدفأةِ في الغرفةِ المُجاورة
كطائرٍ صغيرٍ فقدَ قدرته وصوته المُنطلق
بعدَ إبعادهِ عن حجرهِ الجميل
وإذا وصلت الكلماتُ في يومٍ من الأيّام
فإن الحمقى يتجنبونها
كما تتجنبني الشّمسُ عندما تشرق على الجميع
يتطلّعُ صوتي إلى مَن يتعاطف معهُ!
أريدُ محو الأصوات النّشاز الأعلى منهُ
أمحوها من ذاكرتي، من البيت، من الحي
وتحديداً من ضيقِ أسرّتي.

■■■

رُبّما سارميها في البحار، في العواصف
القادمة الهوجاء
في الغابات البريّة المُماثلة لها وربّما في المُستنقعات
لا يهمّ كيف انتزعها من أيّامي
بل كيف أتخلّص من الآلام المُقدّسة التي تُسببها
حيث أسيرُ في المدن وأنا مُجرّدةٌ من آثارها
راغبةً أن أكونَ وحيدةً مُشردةً
بلا أصواتهم، بلا رنين الضّاعقات الغريبات
ولا أتعرف على ملامح منزلي بعدَ ذلك
مثل مَن يمشي، يمشي ويدخّنُ
يدخّن بحجم العشرين سنة، الزاحلات من العُمر
هذهِ هي الطريقة التي يدخّن بها
لا أدري إلى متى يمكن أن تدومَ سيجارتهُ
لكن هذهِ هي الطريقة التي سيدخّن بها، أي بعددِ اغترابه
ثُمّ بالدّخان يمحو نفسه.

(*) الكوفة/ العراق

رونيه رومييرو ـ شولر ـ «شاطئ» (زيت على كانفاس ـ 2022)

علم اجتماع

سيزار أنطونيو مولينا: في مديح الثقافة وهجاء «الاستعمار الرقمي»

عفيف عثمان

نعيش راهناً في فضاءات العالم الرقمي والتقنيات الجديدة والشبكات الاجتماعية العاملة على تغيير حياتنا اليومية، في مجالات مهمّة مثل العمل أو التعليم أو العلاقات الاجتماعية أو الاقتصاد. وفي خضم هذا التحول الاجتماعي والثقافي الكبير، يُطرح السؤال عن دور الفن أو الأدب أو القراءة أو المكتبات أو الكتابة أو الأيديولوجيات أو المعتقدات: هل محكوم علينا أن نعيش في عالم من دون ثقافة، بلا فكر أو تفكير، عالم تتحلل فيه شخصية كل إنسان إلى كتلة هلامية لا شكل لها؟

على الرغم من كل شيء، يثق الشاعر الإسباني سيزار أنطونيو مولينا (1952) بأنّ البشرية ستعرف كيف تتغلب على التحديات التي يخبئها هذا العالم المتغير، كما فعلت في لحظات معقدة أخرى من تاريخها. كتابه «ما أجمل العيش من دون ثقافة» (2021) الذي أنتقل أخيراً إلى المكتبة العربية (منشورات تكوين ــ ترجمة حسني مليطات) هو مديح للثقافة والقراءة والكتاب بصفتها «مضاداً لأخطار الحماقة»... الكتابة كرغبة في الاستمرارية، والقراءة كمصدر للمعرفة. كان طبيعياً أن يبدأ نص «ما أجل العيش من دون مكتبات» باقتباس من رواية الفرنسي، جول فيرن «عشرون ألف فرسخ تحت سطح البحر» حيث يتعثر الراوي، بعد الكابتن نيمو، بمكتبة: «تم فتح باب مزدوج في أسفل التعليم. لكن بحسب مولينا، لا شيء ينبئ بأن استخدام التقنيات الجديدة أدى إلى تحسين التعليم المدرسي، وفكرة الوصول السريع إلى المعلومة لا يعني بتاتاً الوصول إلى المعرفة، ومهمة المدرسة والجامعة تكوين أفراد «متفقين وأحرار»، والوسائل الرقمية مُساعدة يجب استخدامها بطريقة حكيمة ومعقولة، والإنسان وحده هو «القادر على نقل القيم» ونشرها. يُقرّ مولينا أن القراءة إن يلمس الصفحات حتى يحسّ بدموع كاتبيها وابتساماتهم وروائحهم، ويرى ألوان «شروق الشمس وغروبها».

وقد يسرق الكتاب الإلكتروني عالميّة الكتاب الورقي، لكنه لن يستطيع التخلص منه «من حياتنا ومن طريقة عيشنا». لا يقف سيزار أنطونيو مولينا ضد التطور ولا يُندد به، بل يرى ما هو سيء، فالسيء في نظره هو الألعاب الإلكترونية وبرامج التلفزيون الركيكة. والشاشة قد تساعد في زيادة حجم القراءة، فغوتنبرغ، مخترع الطباعة، لم يمت، بل غيّر مظهره. الناس ما زالوا يكتبون والأفكار تعبر ويتم تبادلها. طبعاً، أدخل الإنترنت تعديلاً على عادات القراءة وجمع الكتب، إذ انتهت تلك الرومانسية المصاحبة للبحث عن النصوص النادرة والطبعات الأولى. وما حدث هو التقليل من العمل البحثي واختصار بعض الصعوبات. ومن المفيد أن نعلم أنّ الأيديولوجيات الشمولية وقفت ضد حرية التعبير، أي ضد الكتاب، فضربت عليه طوقاً حتى لا تخرج حروفه عن سيطرة جهاز الدولة. وما يؤكده مولينا إن القراءة في ازدياد ولا خوف عليها في المستقبل، فأنماطها تتحول، والقراءة التي لن تكف عن الازدهار «هي القراءة النقيّة المخضة للحرية». نحيا اليوم في ما يسميه الكاتب «عصر الاستعمار الرقمي» الذي أنشأ فئات اجتماعية في خدمته وأهمهم «المستعمرون الرقميّون» المعترفون على المعرفة القديمة والساعون إلى التخلص من الورق، والراغبون في تغيير طريقة التعليم. لكن بحسب مولينا، لا شيء ينبئ بأن استخدام التقنيات الجديدة أدى إلى تحسين التعليم المدرسي، وفكرة الوصول السريع إلى المعلومة لا يعني بتاتاً الوصول إلى المعرفة، ومهمة المدرسة والجامعة تكوين أفراد «متفقين وأحرار»، والوسائل الرقمية مُساعدة يجب استخدامها بطريقة حكيمة ومعقولة، والإنسان وحده هو «القادر على نقل القيم» ونشرها. يُقرّ مولينا أن القراءة

الوصول السريع إلى المعلومة لا يعني بتاتاً الوصول إلى المعرفة

مُهدّدة لأن التقنيات لا تحمي العناصر التي تقوم عليها: الصمت، الألفة، المراجع الثقافية والتركيز والقدرة على التفسير والتكامل مع النص والعمل. والوسائط الرقمية غير مُعدّة أصلاً للقراءة، بل للتسلية. والتعليم ليس تسلية، بل يقتضي الانتباه والتركيز، وعلى المدرسة، أن تقاوم «تقنيات تشتيت الانتباه».

يُدرك مولينا جيداً طغيان الرقمية على مناحي الحياة، وأية ذلك شبكة الإنترنت، التي اعتدنا عليها، وباتت جزءاً من وجودنا ومن معيشنا اليومي، وهي تنقل لنا المعلومات بوفرة. مقروءة، إذ إن فعل القراءة «ملازم للوجود الإنساني»، أي بتركيز وانتباه وصمت لا توفره الوسائط الإلكترونية. يُعلي الكاتب الإسباني من شأن الثقافة المدوّنة والمنقولة في الكتب، والمتراصفة في المكتبات، إنّها بمثابة ذاكرة العالم. لا يترك مناسبة إلا ويحتفي بها، فيتحدث عن زيارته المغرب ومشاهداته المكتبات الملكية وما تحويه من كنوز عربية وإسلامية في شكل مخطوطات وتصاوير، ويعبّر عن انبهاره بمكتبة القيروان في فاس، المنشأة في القرن التاسع.

يجد مولينا نفسه مدفوعاً إلى استذكار العالم الكندي، مارشال ماكلوهان (1980 - 1911)، مُنظر الاتصال، صاحب مقولة «الوسيلة هي الرسالة» و«العالم قرية كونية صغيرة»، والوسيط هو من يحدث التغيير لا الرسالة المحمولة، إذ اعتبر أنّ وسائل الاتصال امتداد لحواس الإنسان، فالناس يتكيفون مع ظروف البيئة في كل عصر من خلال استخدام حواس معينة ذات صلة بنوع الوسيلة وطريقة عرضها. ويعني في مقولته «الوسيلة هي الرسالة» أنّ طبيعة كل وسيلة وليس مضمونها، هو الأساس في تشكيل المجتمعات. وهو كان قد تنبأ بأثر التلفزيون الكبير في حياة الناس وفي تبديل سلوكهم، لكنه اعتبر أن الوسائل القديمة تتعايش مع الوسائل الجديدة، كما فعل الراديو. بيد أنّ مولينا لا يوافق على أفكار كاتب «حجّرة غوتنبرغ» ويعتبره من الذين شجعوا «نهاية ثقافة الكتاب» بتفضيله الأدوات الحديثة للاتصال ودفاعه عن دمقرطة الثقافة من خلال وسائط الاتصال الجماهيري المرئي والمسموع. يدعونا المثقف الإسباني إلى عدم الهزيمة أمام الآلة، وإبقائنا المهام لها، يعني أننا فقدنا جزءاً من حريتنا. فالكتاب الورقي لا يحتاج بطاريات ولا وصلات، وهو «جمال قائم في ذاته». يشير المؤلف إلى العالم الجديد المحيط بنا، الذي تحكمه شبكات التواصل الاجتماعي وما تومئ إليه: على سبيل المثال، تويتر هو «عبارة عن إيمان بالحياة»، ومَن لا يمتلك حساباً فيه كأنه غير موجود، فيما تشجّع المدوّنات والفايسبوك نزعة الظهور والنرجسيّة. وما يخشاه مولينا هو اختفاء الخصوصيّة وتمدد السيطرة على البيانات الشخصية من خلال الهاتف المحمول والبطاقة البنكية وكاميرات المراقبة، فالآخ الأكبر، كما عند جورج أورويل، حاضر في انتظارك. والوجود الأهم هو الوجود الافتراضي، ويسلم الشباب أنفسهم طواعية لشبكات التواصل الاجتماعي، منقادين لها، ما يعني فقدان حسّ المبادرة. بهذا المعنى، تكون شبكة الإنترنت «شكلاً من أشكال سبيات الحرية». خشية مولينا من التقنيات والتطبيقات الجديدة أنها تطيح بالحرية الفردية، وهي المهددة أصلاً من طرف الشركات متعددة الجنسيات، الحاكم الفعلي للعالم.

رواية

خالد أبو عجمية: حيفا بصوت «خالتي سميحة»

تغريد عبد العال

يقول الكاتب الشهيد غسان كنفاني: «بالدم نكتب لفلسطين». وفي كتابة الحبر اليومي، يبدو كأننا نستحضر ذلك الدم وتلك النكبة التي كانت وما زالت مفصلاً في تاريخنا ونضالنا، لكن ماذا لو كانت الرواية سرداً لهذه النكبة؟ وما معنى ذلك؟ ربما نحتاج إلى سرد ذلك التاريخ بطريقة غير مباشرة، أو أن يكتب كل واحد منّا روايته الخاصة عما حدث في تلك الأيام المأساوية، أو ربما نعود إلى ذلك السؤال الذي نطرحه على أنفسنا دائماً: ألا نحتاج إلى رواية تاريخية عن النكبة؟

في روايته الجديدة «خالتي سميحة المنكوبة» (دار الشامل ـ نابلس)، يسرد الروائي الفلسطيني المقيم في إيرلندا، خالد أبو عجمية ما حدث لحيفا عندما سقطت في أيدي الصهاينة، كأنه يحاول أن يجيب على السؤال الذي طرحناه. فهو يستحضر ما حدث تاريخياً في رواية عن خالته سميحة التي تعشق حيفا. حيفا التي سقطت بتعاون مع بريطانيا وعصابات الهاغانا تعطي صورة حية عن فلسطين ونكبتها، كما كانت خالته سميحة رمزَ تلك المرأة التي قالت لا للاحتلال والظلم ولا لبريطانيا أيضاً التي كانت الخالة التي مهّدت لهذا السقوط.

ولكن سميحة عاشقة حيفا، لم تهب الاحتلال، فهي لا تريد مغادرة حيفا. يقول الروائي: «سميحة هي حيفا، وحيفا هي سميحة، كلاهما بنات البحر، حيفا ليست نفسها بدون سميحة، فقد فرقتهما الحرب». هي حيفا التي قال درويش عنها في قصيدته «أحمد العربي»: «وحيفا من هنا بدأت وأحمد سلم الكرمل». فنقرأ عن علاقة سميحة بحيفا وهي علاقة الفلسطيني بهويته، كأنّها سلّمها إلى كل شيء. هكذا صرخت سميحة أيضاً: «راحت حيفا، راحت حيفا حين بدأت العصابات تتسرب في مفاصل المدينة». لم تكن سميحة مجرد باكية على حيفا، بل كانت مدافعة عنها، حين أدركت أنّ العرب يتذللون لبريطانيا لحمايتهم، كما كانت تشعر دائماً بذلك الأمل حين كانت تعلم أن حيفا تقاوم. ففي فصل «الخروج من حيفا»، يكتب الروائي أنّ الغزاة يخترعون لغةً من وهمهم، فاللغة كما يقول: «واحدة من الأشياء التي تبقي الناس أحياء». ولأن المنتصر أيضاً يكتب تاريخه على مرأى التاريخ، فسنفكر إذن كثيراً حين نكتب نكبتنا وبأي لغة سنجعل ذلك التاريخ يتحدث عما حدث بلغة الحق والحقيقة.

يحمل السرد «التاريخ» كأنه الرواية من دون أن يهمل الروائي التفاصيل اللغوية الجميلة، والحوارات بين أفراد العائلة، وهنا يتحول التوثيق إلى مادة روائية تجعل الأدب يُمسك بمهمته الحقيقية وهي أن يقول الحقيقة بكل تفاصيلها الإنسانية. فالحرب ليست فقط تلك القنابل والجثث والدمار، بل هي أيضاً تلك الخلفية المظلمة للمؤامرات السياسية، وهي أيضاً ما يحدث داخل الشخصيات من ألم وفقدان ومن مقاومة لذلك الظلم. لذلك، نحاول نحن القراء أن نتتبع في الرواية ماذا تفعل تلك الأحداث التاريخية بنا، وكيف تسلّلت تلك الأسئلة إلى رأس سميحة أثناء السقوط، فصارت تسأل: «كيف تغلب الأسلحة القصيرة الأسلحة الطويلة؟». في منتصف الرواية تقريباً، يحضر المخيم. هو ليس فقط جزءاً من هذه التغريبة، بل هو ذلك المكان الذي حمل معه جرح النكبة حياً، وداخل بيت سميحة في المخيم، تحضر تلك الصورة التي التقطها أحد المصورين في وكالة الغوث. لقد كان المخيم شاهداً على الكارثة، وحيفا ظلّت في ذاكرة سميحة وهي في المخيم التي غادرته سعاد لأنها لم تحتمل الحياة فيه.

تحول التوثيق إلى مادة روائية تجعل الأدب يمسك بمهمته الحقيقية

تفترق حكاية المرأتين هنا بين مناضلة تعيش على ذاكرة حيفا المنكوبة، وبين هاربة تتفق مع امرأة سيئة على الهرب من المخيم.

هنا ليست الذاكرة مجرد لعنة بل هي حكاية أخلاق، وحكاية البقاء سؤال آخر في وجه من عاش تلك الظروف القاسية. تنتقل بنا الرواية لمعرفة سميحة أكثر كأنها وجه آخر لحيفا، والخالة كما يقول هي الوجه الآخر للأم، فندخل إلى حياتها لنعرف أنها تتزوج وتصبح أماً، فتتداخل تفاصيل حياتها مع حياة النضال في المخيم من خلال الحياة اليومية. وتحضر أيضاً قضية فلسطينيي الداخل من خلال قصة يسرى، وحتى شجون الموت العادي تصبح قضية وطنية في حياة الفلسطيني المغترب. ولا يغيب الأسر أو السجن كجزء من تلك الحياة النضالية، وكجغرافيا تتالم داخل الوطن من خلال قصة سليم. يقول الكاتب: «إن رواية اللاجئ هي دليل نكبته»، كأنه في تلك الرواية يحاول أن يجيب على سؤال طرحه في نهايتها تقريباً: «ماذا سيكون الفلسطيني إن لم يكن فدائياً؟». وهذا ما سيأخذنا إلى المعنى الحقيقي في الرواية: أن تكون فلسطينياً يعني أن تكون فدائياً.

تنتهي الرواية بسؤال المخيم، لكنه أيضاً البداية، فهو المحطة، هكذا كما تبدأ سميحة خليل: ترى هل لا زلت تفكر في حيفا؟ أم أنك اكتفيت بالمخيم؟ يثير الكاتب هنا سؤال الذاكرة، فهذا المكان يحمل بروحه كل تلك الخلفية التي جاء منها، وهي فلسطين والنكبة، لكنه كما قالت سميحة لن ينسى كل تلك المدن والقرى، وفلسطين كلها.

ولكن الرواية أيضاً تنتهي بالأمل كان الكاتب هنا يتفق مع ما طرحه الروائي إبراهيم نصر الله في «الملهاة الفلسطينية» التي أثر أن يسمي مشروعه بالملهاة بدل المأساة لأنه رفض تلك النهاية الحزينة للقضية.

يقول محمود درويش في «يوميات الحزن العادي»: «ليس صحيحاً أيضاً أننا قادرون على إعادة الذاكرة إلى العالم عن طريق إرضائه». لذلك، فإن ذلك الضوء هو الثورة الحقيقية، والمقاومة. في قصيدة الشاعر الفلسطيني طه محمد علي، نقرأ: «حتى لو كانوا يا قاسم فعلوها وقتلوك/، ففي يقيني أنك ضحكت على قاتليك/ كما ضحكت على السنين». أما الشاعر الغواتيمالي أمبيرتو أكابال فيقول: «العدالة لا تتحدث لغة الهنود الحمر».

ومن هنا، نشعر أن الرواية ليست فقط عن النكبة بل رواية عن المرأة التي حملت هذه الهموم، وهي الخالة سميحة التي حملت في قلبها هموم الوطن والأبناء والأخوة، فكانت روحها وحياتها تعبيراً عن تلك العدالة المسحوقة، وكانت حياتها سيرة لما حدث أيضاً للوطن والبلاد. كأنّ الوطن يسرد حكاياته من خلال تلك الأرواح الجميلة حولنا.

وفنياً، تقول الرواية إنّ في سرد الأحداث التاريخية والقضايا الكبيرة يستطيع الأدب أن يقدم بلغة جميلة ما هو جديد وعميق عن طريق تحليل هذه الأحداث لغوياً وسردها من منظور شخصيات عادية تحاول أن ترى ما يحدث كما تفكر به وتحلم به.

لمحات

دورية أفق

تحت عنوان «وطن اسمه فيروز»، أطلقت «مؤسسة الفكر العربي» إصداراً خاصاً من «دورية أفق» يتضمن مجموعة من الدراسات والمقالات والشهادات التي تتناول مختلف جوانب مسيرة فيروز الفنيّة. شاركت في العدد كوكبة من الكتّاب والنقاد والباحثين العرب الذين أجمعوا على فرادة فيروز صوتاً وأداءً، وأشادوا بعبقرية الرحابنة نصوصاً وألحاناً وموسيقى. وقد ازدان الإصدار بمجموعة من الرسومات المستوحاة من حياة فيروز وأغانيها. يسعى العمل إلى الإحاطة بتجربة «سفيرتنا إلى النجوم» من زوايا متعدّدة، ما يجعله مرجعاً يرفد قرّاءه بالجديد والمفيد والممتع.

صبري حافظ

يُقدّم الناقد المصري صبري حافظ في كتابه «طه حسين: ذكريات شخصية معه» (منشورات سيشات) صورة قريبة لـ «عميد الأدب العربي» (1889 ـ 1973) من قلب بيته وسط زواره من نجوم الأدب والثّقافة والسّياسة في عصره. يأخذنا حافظ من المنوفية مسقط رأسه إلى قاهرة الستينيات، ومنها إلى أكسفورد، لندن، باريس، وبرلين... رحلة تمتد في الزمان والمكان، وتُقدّم صفحات نادرة عن ذكريات حافظ مع طه حسين الذي يعتبر واحداً من أهم مثقّفي مصر في كل العصور.

باسم سليمان

ضمن «سلسلة تحوّلات» التابعة لـ «المركز العربيّ للصحافة» في القاهرة، صدر أخيراً ديوان الشاعر والروائي السوري باسم سليمان بعنوان «رأسي البسط، جسدي المقام، أنا كسرٌ بين الأرقام». تميز الكتاب بإشراف من الشاعر أدونيس، الذي شرح في مُقدمته عن سبب اختيار هذا الديوان للنشر في «سلسلة تحوّلات»، مشيراً إلى أن باسم سليمان قد حقّق قطيعة جماليّة وفكريّة متميّزة في رؤيته الفنيّة وأساليب تعبيره، متجاوزاً الشعر السائد. ولفت أدونيس إلى أن الديوان يُقدّم تجربةً خلّاقة تؤسّس لعلاقات جديدة بين الكلمات، وتعزز التواصل بين الكلمة والشيء، وتُثري عملية كتابة الشّعر وقراءته وفهمه واستقباله.

ارتو شنيتزلر

كازانوفا، ذاك الساحر للنساء في القرن الثامن عشر، لم يكن مجرد أسطورة، بل شخصية تاريخيّة حقيقيّة تركت وراءها إرثاً ثرياً من الكتابات، بما في ذلك مذكراته الشهيرة. في رواية «عودة كازانوفا» (صفحة سبعة للنشر ـ ترجمة محمد المهذبي)، يُقدّم لنا الكاتب النمسوي آرتو شنيتزلر كازانوفا في مرحلة شيخوخته، وهو يتوق إلى العودة إلى مسقط رأسه في البندقية التي هرب منها منذ زمن بعيد. تقدم لنا رواية شنيتزلر رؤية خاصة عن مرحلة الشيخوخة واليأس والارتباك، فنشعر بأحاسيس كازانوفا، ونرى في وصف التدهور الإنساني الدليل على تلاشي عالم قديم ومجيء عالم جديد.

محمود افندي عُمر الباجوري

يتميّز كتاب «الدُّرَرُ البهيَّة في الرِّحلةِ الأُوروبيَّة» (1889) للعالم الأدبيّ محمود افندي عمر الباجوري (1853 ـ 1909) بأنه جمع بين أدب الرحلة والكتابة التسجيليّة والإبداعيّة، واحتل مكانة متقدمة في الخطاب الرحلي العربي، حيث قام الباجوري بالمقارنات بين حضارته المصرية وحضارة الأوروبيين الذين التقاهم، وظهرت في كتابته رغبته في أن تصل الحضارة العربيّة إلى مستوى الحضارة الغربيّة في الصّناعة والتقدُّم العلميّ. صدر الكتاب بالتعاون بين «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» و«دار السويديّ للنشر والتوزيع» في بيروت، وتمّ تحقيق الكتاب من قبل الأكاديمي والنّاقد الأردني عامر أبو محارب. هنا، يستعرض الباجوري تجربته في زيارة المدن والمعالم الثقافيّة الأوروبيّة ويناقش الفن، الأدب، العلوم، الاقتصاد، والسياسة. كما يقارن بين الحضارة الغربيّة والحضارة العربية والإسلاميّة. يُعتبر الكتاب توثيقاً مهماً لرحلة المؤلف ونظرته الشاملة للثقافة الأوروبية وتأثيرها على المجتمع العربي.

محمد سعيد الشكرجي

يُمكن اعتبار كتاب «خلل بناء الدولة العراقية» للباحث العراقي محمد سعيد الشكرجي الصادر عن «دار الرافدين» مختبراً سياسياً واجتماعياً لتفسير الظواهر الأساسيّة التي أسهمت في محاولات بناء الدولة العراقية. أطلق الكاتب العنان لقلمه ليجول بين الماضي والحاضر، في ربط الواقع والأحداث التي مرّ بها العراق، منذ تأسيسه حتى حربه على الإرهاب، بمنطق تحليلي مستعيناً بأدواته النظريّة ومتأثراً بالمدرسة الفرنسيّة في العلوم السياسيّة. يعرض آليّات تشكيل الدّولة العراقية من رحم ديني مجتمعي وثقافي وهويّاتي مبيناً انعكاس ذلك على الهويّة العراقية الوطنية وعلى حالة الاستلاب وتفاعلات البناء المشوه، كحالة ثقافة العداء للدولة، واستشراء الفساد الاجتماعي الذي تحوّل إلى ثقافة وتشويه مفاهيم الديموقراطيّة التوافقيّة وإرث الديكتاتوريّة والحروب والحصارات وصراعات ثنائية المجتمع والدولة.

غيورغي غوسبودينوف: الإنسان «مقياس كل الكائنات»

سارة سليم

يقول الكاتب والشاعر البلغاري غيورغي غوسبودينوف في كتابه «فيزياء الحزن»: «بعض الكتب يجب تجهيزها بخيط أريادني». لذا حين تقرأ أعماله «فيزياء الحزن» و«غيوركي غوسبودينوف وقصص أخرى» (المترجمة إلى العربية عن «دار أثر» السعودية) و«ملجأ الزمن» التي حازت أخيراً «جائزة مان بوكر الدولية»، تتساءل: هل كتاباته تدخل في خانة الرواية أم أنها سيرة ذاتية تجمع بين سيرة الشخص وسيرة كل الأشياء التي لا سيرة لها في عمل تعجز عن تصنيفه؟ فلو قلتَ رواية ستظلم فكرة كتابة الرواية، كما تعودت أن تقرأ، وإن قلت سيرة ذاتية خالصة، ستظلم فكرة أنك تقرأ سيرة ذاتية بكل تفاصيلها الحقيقية والصادمة أيضاً. لا شك في أن ما يربط كتاباته هو ذلك الخيط الأريادني في الميثولوجيا اليونانية القديمة.

أعمال غيورغي غوسبودينوف تجمع حكايات منفتحة على العالم، ومنفتحة على حكايات تروي كل واحدة منها قصتها الخاصة، لكنك لا تقبض على نهايتها. في الدقيقة التي تشعر فيها أنك قبضت على فكرتها، تدخل دوامة حكي لا تنتهي، كأنك سقطت في بالوعة يصعب الخروج منها. كلما حاولت أن تتبع خيط الرواية، تبتلعك حكاية جديدة، لتجد نفسك في متاهة حكي لا تعرف الخروج منها بالطريقة ذاتها التي دخلتها، كأنك محكوم بخيط أريادني، وهذا يتطلب استحضار قدر كاف من الاستيعاب ليسهل عليك قراءة أفكار غوسبودينوف التي لا تقرأ الواقع كما هو، ولا تستند إلى الخيال وحده، بل كل ما في الأمر أنه يحاول شرح نظرته للحياة بهذا الشكل. من هنا تأتي فرادة هذا الكاتب الذي بإمكانه أن يكتب بالطريقة المتعارف عليها روائياً، لكنه اختار المجازفة في قول الأشياء كما يراها، وليس كما يتعيّن عليه أن يكتبها. لعلّ هذا النوع من الكتابات يحمل الكثير من الصدق، لأنه حقيقي، تلك الحقيقة التي لا تعبّر عن نفسها إلا هكذا، يقول في أحد مشاهد كتابه «فيزياء الحزن»: «الأغراض الأدبية الطاهرة لا تهمني كثيراً، فالرواية ليست آرية الأصل».

حين يحكي عن بعض تفاصيل الطفولة، كأنه يريد من خلالها استعادة الماضي، فعندما تحدث في «فيزياء الحزن» عن حكايات شهرزاد لشهريار في أشد لحظات حياتها خوفاً وضعفاً، يرى أن في «داخل الحكايات التي ترويها شهرزاد يتم شراء الحياة، من باب الحكايات نفسها». بهذا هو يريد التأكيد على أهمية الحكاية باعتبارها شكلاً من أشكال الخلاص بالنسبة إلى من يحكيها، وإلى من يسمعها أيضاً. لهذا يرى أنّ «الحكاية تحافظ على الذكرى في الفم الذي يسردها والأذن التي تسمعها».

نقرأ في أعماله ذلك الجانب الروحي، وذلك التقمّص الوجداني الذي تشعر بطريقة ما أنه يحيي لحظات من الذاكرة نعتقد أنها نسيت في غمرة الحياة. خيط رفيع يجمع كتاباته ببعض كأنها بطريقة ما مكملة لبعض، أو ما استطاع الكاتب تجاوز أفكاره وهواجسه حول الحياة التي «يمكن روايتها وكأنها كتالوغ للهجر» على حد تعبيره في «فيزياء الحزن». وعن الموت الذي عبّر عنه بأنه «فقد وجهه»، يتساءل: «لا أعرف كم من الموت يغفو تحت اللغة». لذا يعود في كل مرة لربط علاقة الموت واللغة، قائلاً: «إذا كان الموت ظلاماً وغياب آخرين... فلطالما كنت ميتاً. ولطالما غشيني الظلام».

يمنح غوسبودينوف في أعماله الصوت لمن أطلق عليهم اسم «فلاسفة النهار». في «فيزياء الحزن»، يستحضر مشهداً من الطفولة حين كان يتجمع الشيوخ أمام البيوت والمحلات في ساحة قريته، يدخنون وينكشون الغبار بعصيهم، هؤلاء الذين لا أسماء لهم على حد تعبيره، ثم يضيف بأن نمط «الحياة في هذه المناطق قصيرة والنهار خالد».

لا يمكن للقارئ أن يحصر أفكار غوسبودينوف في بلد الكاتب، بل يستطيع كل واحد منا تأليف سيناريو مشابه لمشهد غوسبودينوف هذا، وسيكون المشهد حقيقياً، لكنه يخلو من الصور الواضحة التي تظهر فيها الملامح بشكل دقيق. ومن هنا جاءت فكرة هذا العمل وكل أعماله التي لا يمكن أن تقرأها على أساس أنها روايات أو قصص عادية أو لربما سيرة ذاتية متشظية للكاتب نفسه.

في «فيزياء الحزن»، و«غيورغي غوسبودينوف وقصص أخرى»، و«ملجأ الزمن»، تشعر أن البطل هو الكاتب نفسه، يتكئ في منعطفاته السردية على شخصية غاوستين الخيالية التي يبدو أنّه ابتكرها كي تكون وجهه الروائي. تشارك شخصية غاوستين أحياناً السرد مع الراوي، كأن الكاتب يبرر وجودها الأدبي في نصوصه.

حين قرأت «ملجأ الزمن»، عدت إلى قراءة «فيزياء الحزن» لأنه تعرض فيها لذكريات الطفولة التي تشكل حاضر الإنسان ومستقبله، فالرواية التي حصل بفضلها على «جائزة مان بوكر» لا تتحدث عن الذكريات بوصفها شيئاً يمكن العودة إليه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، بل تتجاوزها للتساؤل فيما لو فقد الإنسان ذاكرته عن طريق الزهايمر، أو عن طريق نمط عصرنا هذا. فهو استخدم غرفاً لمرضى الزهايمر، خصّص لكل عقد من الزمن غرفة معينة تعيده إلى ذكريات الماضي، لكنه لم يتوقف عند هذه الفكرة، بل ابتكر طريقة أخرى للحديث عن إنسان اليوم، من خلال تهافت الأصحاء أيضاً على هذا النوع من العيادات رغبةً في العودة إلى ذكريات الماضي. هذه الفكرة بالذات تطرّق إليها في «فيزياء الحزن» عندما تحدث عن السياحة الافتراضية التي توفرها شركات خُصّصت لخدمة رجال الأعمال الأغنياء، فهم «يجهزونك بطقم الذكريات، بحيث تستطيع أن تصدق أنك فعلاً قمت برحلة».

كتاباته سيرة لكل الأشياء والكائنات التي تتفاعل مع البشر

لذا، فكتاباته تكمل بعضها، في تداخل رهيب كأنها متاهة بالفعل. لكنه في واقع الأمر لا يتحدث عن تاريخ بلغاريا وأوضاعها الاقتصادية وكل مل يمرّ به العالم، بل يحاول من خلال نصوصه الوثيقة الصلة ببعضها، أن يقارن بين إنسان الماضي وإنسان اليوم... هذا الإنسان الذي فقد أبسط خصوصياته. لذا احتمى بعضهم بملجأ الزمن كمنفذ لمواصلة الحياة في الحاضر.

كتاباته سيرة لكل الأشياء والكائنات التي تتفاعل مع البشر خلال فترة وجودهم على الأرض، سيرة الهدوء القادم من الطفولة، والضجيج الذي يشوّش الحاضر. وهكذا نقرأ في أعمال غوسبودينوف عن الذاكرة، الطفولة، الشيخوخة، الألم، الحكاية، الأدب والكتابة... عن الإنسان الذي يظل بالنسبة إليه «مقياس كل الكائنات، وما صنعته يداه ينبغي أن يكون باقياً، أن يستمر بالعيش بعد موت الإنسان».

أوراق

رجز عربي على صخرة قبل الإسلام بمئات الأعوام

زكريا محمد *

في عام 1989، عثرت الباحثة الراحلة جيرالدين كنغ على نقش صفائي فريد من نوعه في شمال الأردن أعطي الرقم KRS 2453. والنقوش الصفائية تعرض لنا لهجة عربية قديمة كتب بها البداة الرعاة على صخور الحرات والصحارى بأبجدية قديمة، لم تعد مستخدمة منذ القرن الثالث الميلادي تقريباً. وتتركز الكتلة المركزية لهذه النقوش في شمال السعودية وشمال الأردن وجنوب سوريا. وأدناه النقش مكتوباً بالحروف الإنكليزية ثم العربية مصطفّة وراء بعضها من دون أي علامة تُشير إلى كيفية تقطيعه إلى كلمات أو جمل.

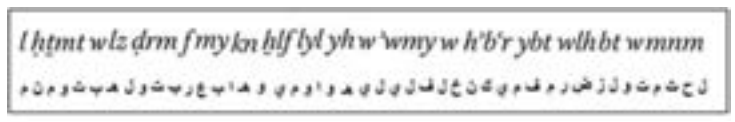

النقش الصفائي في شمال الأردن حامل الرقم KRS 2453

ليست هناك، كما نعرف، طريقة مأمونة لتوقيت النقوش الصفائية. فالتوقيتات المقترحة لها تُبنى عموماً على فرضيات خارجية عامة. والاعتقاد السائد أنّ أقدمها يعود إلى القرن الميلادي الأول، وأن أحدثها يعود إلى القرن الثالث الميلادي. وهناك من يعتقد أنّ أقدم هذه النقوش قد يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وأحدثها إلى حدود الميلاد، قبيله أو بعيده. وأنا أميل إلى هذا الرأي. وإذا صح هذا، فالنقش الذي نتحدث عنه يقع في فترة ما بين 600-1000 سنة قبل الإسلام.

وأهمية هذا النقش أنه، وبناء على قراءتي، يعرض لنا قطعة رجز. وهذا يعني أنّنا مع أقدم شعر عربي يصل إلينا حتى الآن. ويرجع الفضل إلى الباحث أحمد الجلاد في إثارة الاهتمام بهذا النقش. فقد نشر ورقة حول النقش حدس فيها بأنّه أمام نص شعري (1). ولم يكن مخطئاً في حدسه. غير أنه، وللأسف، قدم قراءة مشوشة جداً، وغير مقبولة، لهذا النقش المهم. وقد عمد إلى طريقة غريبة لقراءة النقش والتغلب على إبهامه. فقد افترض أنه خليط من لهجة صفائية وحسمائية. وانطلاقاً من ذلك، فقد أعطى لثلاثة أحرف من النقش قيمةً صوتية حسمائية لا صفائية. وبهذا التلفيق توصل إلى أنّ النقش يتحدث عن الصراع بين الإلهين الكنعانيين بعل وموت.

وأدناه تقطيع الجلاد للنقش بعدما حوّلناه من الحروف الإنكليزية إلى الحروف العربية، إضافة إلى تفسيره وفهمه لهذا النقش مترجماً عن الإنكليزية:

النص:

«»لَحَجّ موت واللاظّ ثَرام
فمُيَكان خَلْف لياليُه وأوّامُه
وها أبْعْل يُبَتْ ولَهُو باتّ وما نام»

المعنى:

«أولم (الإله) موت وليمة، المستهزئ يأكل
مؤسس تعاقب لياليه وأيامه
هو ذا بعل يُقطّع أرباً. إنه لمقطع حقاً، لكنه ليس ميتاً».

وأعتقد أنه من السهل الاستنتاج بأن هذا كلام غامض جداً، ويكاد يكون بلا معنى. ويمكن لي القول إنّ خطأين مركزيين أوصلا الجلاد إلى هذه القراءة المشوشة وغير المقبولة:

الخطأ الأول: وقع في تقطيع الحروف من 12-16 في الشطر الثاني من الرجز. فقد قطعها الجلاد على النحو التالي: فـ ميكن f –mykn مفترضاً أنّ الحروف الأربعة التي تتبع الفاء تكون كلمة واحدة هي: ميكن، وأن هذه الكلمة تقرأ: «مُيْكان» وأنها من جذر كون: «م ي ك ن (مُيَكان): يُرجَّح أنها صيغة اسم المفعول من الجذر «ك-و- ن» في وزن «أفعل»، وأصله «مُؤْكان»، بمعنى «كائن، ثابت»، والصيغة غير مثبتة في المعاجم العربية» (2).

والحقيقة أنّ هذه القراءة وهم. فالحروف التي بعد حرف الاستئناف جملة شرطية مكونة من الاسم الموصول «مَنْ» ثم من الفعل «يَكُنْ»، أي أن شبه الجملة في الأصل هكذا: «فـ من يكن». لكن جرى حذف النون بالإدغام وتشديد الياء. ثم كتب الكاتب الجملة كما تنطق، أي من دون النون «ميّكن». ولم يتمكن الجلاد من الانتباه إلى هذا الإدغام. ولو أنه انتبه إليه لما كان بحاجة إلى اختراع كلمة «مُيْكان» الملفقة من الصفائية والحسمائية معاً.

الخطأ الثاني: وقع في تقطيع الحروف من 19- 28. فقد قطعها الجلاد هكذا: ليليه/ و أومه. وفهم أن هذه جملة تعني: لياليه وأيامه: «أما كلمة «أوّامه» فأصلها «أيْوامه»، وهي صيغة الجمع المهجورة لكلمة يوم، والجمع المتعارف عليه «أيّام» (مماثلة الياء والواو) أحدث نسبياً» (3). وإذا كان ممكناً، نظرياً، قراءة الحروف الخمسة الأولى على أنها «لياليه»، فإن قراءة بقية الحروف «و أومي» على أنها «و أوامه» وأنها تعني «أيامه» قراءة «غير مقبولة بالمرة».

والحق أنّه لا لزوم لكل هذا التمحك لفهم جملة: «ليالي هأوّمِ». إذ إن الجملة تحمل تعبيراً عربياً معروفاً جيداً في الرجز الجاهلي، وهي «الليالي الأُوَم»، أو بالتشديد «الليالي الأوّم»:

لَمَّا رأيتُ آخِرَ اللَّيلِ عَتَمْ
وأنها إحدى لَيالِيكِ الأُوَم

والتعبير يعني: الليالي المنكرة، أي السيئة: «اللَّيالي الأُوَمُ: المُنْكَرَة، ولَيال أُوَمُ كذلك» (لسان العرب). والاختلاف أن النص الصفائي يستخدم الهاء بدل أل التعريف العربية: «ليالي هأوّم = ليالي الأوّم». كما أنه يمد الكسرة في «هأوّم» ويحولها إلى ياء «الأومي». ونحن نعرف أن النقوش الصفائية تستخدم الهاء أحياناً وأل التعريف أحياناً أخرى.

بالطبع، هناك حرف الواو الذي يبدو زائداً بعد الهاء «هوأوم». وليس لديّ صورة للنقش للأسف كي أتأكد من وجوده ومن صحة قراءته. لكن من المحتمل أن رغبة الكاتب في الحصول على الهمزة المضمومة هي التي جعلته يضيف هذه الواو.

بالتالي، فهي واو لتأكيد ضمة الهمزة لا غير.

وجملة «الليالي الأوم» وصف لليالي المعتمة، التي لا قمر فيها، في آخر الشهر. وهي بالنسبة إلى البداة المرتحلين أصعب الليالي وأخطرها على الإطلاق. ففيها، وفي ظل عتمتها، تجري غزوات الأعداء، وهجمات السباع البرية، عليهم وعلى قطعانهم. بذا فشطرا الرجز الذي أوردناه أعلاه تكرر تقليداً ربما يكون عمره ألف سنة قبل الإسلام.

وإذا كان ما نقوله صحيحاً، فإن شطرين اثنين من قطعة الرجز يكونان قد انكشفا أمامنا وفُهما. ذلك أن الشطر الأول مكون من اسمين مع لام الملكية لا غير.

لـ حثمةٍ و لـ زضرمٍ
فميّكن خلف لياليِ هأُوّمٍ [لياليِ الأوّم]

أما «حثمة» فاسم كان شائعاً في نهايات العصر الجاهلي وفي الإسلام. وهو يعني: «أُكَيْمَةٌ صغيرة سوداء من حجار» أو «أرنبة الأنف» أو «المهر الصغير» (لسان العرب). وأما زضرم فلم يرد كاسم في المصادر العربية. كذلك ليس هناك جذر لهذا الاسم في القواميس العربية. لكن لدينا الجذر «زدرم» الذي يبدو كتنويع على «زضرم». وهذا الجذر يكاد يكون ميتاً. إذ لا نجد تحته سوى كلمة واحدة: «الازدرام: الابتلاع» (الجوهري، الصحاح في اللغة). بالتالي، فالاسم زضرم يعني: المبتلع في ما يبدو، أي الذي يبتلع كالوحش أخصامه. وأما «خلف»، فيبدو أنها تعني هنا: حبيساً. ذلك أن الخَلف هو محبس الإبل: «والخَلْف: المربد يكون خلف البيت. يقال: وراء بيتك خلف جيد. وهو المربد، وهو محبس الإبل» (لسان العرب). بناء عليه، يتبقى علينا أن نقرأ الشطر الثالث الذي يبدو الأصعب. ونحن نقطعه على الشكل التالي:

و هبعر يبتو له بتو منم

ومن الواضح بالنسبة إلينا أن هذا الشطر يجب أن يحوي جواب الشرط لجملة «من يكن». ويفترض أن يبدأ هذا الجواب بفعل مضارع لأن الشرط بدأ بـ «يكن» المضارعة. والياء الوحيدة الموجودة لدينا في هذا السطر تقع في كلمة «يبتو» التي نعتقد أنها تمثل جواب الشرط وأنها مجزومة به، أي أنها في الأصل «يبتون». بالتالي يجب كتابتها بواو الجمع في نهايتها عند كتابتها بالخط العربية الذي نستخدمه «يبتوا».

أما الكلمة الأولى في البيت «هأبعر» فمعطوفة بالواو على «ليالي الأوم». ونفترض أن أبعر هذه جمع بعير، وأنها منونة (أبعرٍ). وقد تكون الهاء فيها اسم إشارة (هذه الأبعر) أو أنها هاء التعريف، التي تلعب دوْر أل التعريف.

لكننا لسنا متأكدين تماماً من معنى جملة «يبتوا له بتوَ». غير أن من الواضح أننا مع فعل ومصدره، وهو ما يشير إلى أن «بتوَ» مفعول مطلق مضاف إلى الكلمة الأخيرة: «بتوَ منم». وسوف نأتي إلى كلمة «منم» لاحقاً. لكن يبدو أنّ «بتوا، بتوَ» من الجذر «بتا». والغالبية على أن هذا الجذر تنويع على الجذر «بتأ» بمعنى أقام: «بَتَأَ بالمكان يَبْتَأُ بُتُوءاً: أقامَ. وقيل هذه لغة، والفصيح بَتَا يُتُوّاً» (لسان العرب). يضيف ابن دريد: «والبَتْو فعل ممات، ثم قالوا: بتا يبتو بَتْواً، فلم يهمزوا؛ وهمز قوم فقالوا: بَتَأَ يبتَأ بُتوءاً، إذا أقام بالمكان، وليس بالثَّبْت» (ابن دريد، جمهرة اللغة). بذا فليس لنا مفر سوى القبول، بشكل ما، بأن هذا الجذر يعني: أقام، رغم أن هذا مؤكداً.

انطلاقاً من هذا، يبدو أن الرجاز يقول:

ومن يقضي وقته حبيس الليالي الأوم المنكرة، وهذه الأباعر، فإنه سينتهي إلى أن يبتون له بتوَ (منم). أي سيقيمون له، أو ينشئون له، مكان إقامة يوصف بأنه «منم». لكن يمكن قراءة كلمة خلف على أنها «خِلْف» وبمعنى ما تخلفه الليالي الأوم والبعران. ولسنا ندري بالضبط ما تعنيه كلمة «منم» ولا كيف علينا تشكيلها. لكن السياق ربما يعطي معنى أنهم يحفرون له «قبراً». أي أن مكان الإقامة هنا هو القبر. وإذا صح هذا، فإن «منم» هنا تبدو على صلة بـ «مُنِيم» بمعنى: مهلك، في بيت شعر للبيد. «قَبائِلُ جُعْفيّ بنِ سَعْدٍ، كأنما/ سَقى جَمْعَهم ماءُ الزِّعافِ مُنِيمِ. قوله: منيم: أي مُهْلِك، جعل الموت نَوماً» (لسان العرب). لكن كي ينضبط الإيقاع في الرجز، يبدو أنّ علينا أن نقرأ الكلمة الأخيرة بتشديد الياء (مُنَيِّم):

يبتوا له بتوَ مُنَيَّم

أي بتواً للموت والهلاك، أي مقراً للموت والهلاك. بناء عليه، يبدو أن الراجز يصف وضعه. فهو حبيس الليالي الأوّم، وحبيس أباعره في الصحراء، وأن هذا ما سيهلكه ويودي بحياته. وبناء على هذا، فإنني أقترح أن اللام قبل اسمي حثمة وزضرم (لِـ حَثْمَةٍ و لِـ زَضْرَمٍ) لا تشير إلى أن النقش من كتابة حثمة وزضرم معاً، بل إلى أن الراجز يكتب لهما، أو يستشهد بما كتبه غيره، كي يوضح لهما وضعه. وهذا يعني أنهما رفيقاه أو أخواه. كما أنه يعني أنه يرسل لهما رسالة يشرح لهما فيه وضعه. ولعله بذلك يرسل لهما رسالة استغاثة. فهو سيهلك وحيداً إن لم يسعفوه.

«لحثمة و لزضرم
فمن يكن خلف لياليِ هأوّم
بتّوا له بتوَ منيّم»

إن صح كل هذا، يبدو أننا مع أقدم شعر عربي نصل إليه حتى الآن. أكثر من ذلك، يبدو أن هذا النقش يدعم بالفعل اقتراح أن الرجز هو أقدم شكل للكتابة الشعرية العربية وأنه أقدم بكثير من التقصيد، أي من الشكل الذي يتكون فيه كل بيت من شطرين ونسميه قصيدة.

* شاعر وباحث فلسطيني

1- Al-Jallad، Ahmad، (Echoes of the Baal Cycle in a Safaito-Hismaic Inscription، Journal of ancient near eastern religions 15 (2015) 5–19).

2- حكمت درباس، ما قبل القصيدة الجاهلية: دراسة في الشعر العربي القديم، ضفة ثالثة، 15 مارس 2018.

3- حكمت درباس، المصدر السابق.

Samedi 17 Juin 2023 no69
السبت 17 حزيران 2023 العدد 69

القوس

www.alqaous.com

8 صفحات

ملحق أسبوعي مخصّص للعدل والإنصاف يصدر مع الأخبار كل سبت

إعلان من الحملة التي نظمتها وزارة الداخلية والبلديات (أرشيف ـ مروان طحطح)

تعاطٍ وترويج واتجار

ثلاثية الاتهام الظالم

[4 - 5]

قصور العدل

في العمق

المكننة والرقمنة: الإصلاح لا يحتاج إلى معجزات

تتوارد إلى أذهان اللبنانيين كلمة «إصلاح»، حين يسمعون خطابات السياسيين بين فينة وأخرى. في حين أن إصلاح المرافق العامة لا يحتاج إلى معجزات، كذلك لا تصحّ عبارة «إصلاح الحال من المحال» في حالة مرفق العدالة، المرفق الاساس لقيام دولة الحق والقوانين. فالقضاة الجيّدون كثر، وموظفو العدلية النزيهون أيضاً كثر، وهم يحاولون إخبارنا انهم اهل للثقة، إلا انه ليس هناك من يستمع إلى شكواهم او ينظر إلى حالهم. فرغم كل الازمات الذي يمرّ بها البلد، لا يزالون يطالبون بجرعات امل لبناء ما تهدّم والاستمرار، ولمنع الانهيار الكلّي للقضاء. فهل تلقى العدالة آذاناً صاغية وتُمدّ لها يد العون بإجراءات تُمكّن القضاة والموظفين من القيام بمهامهم بيُسر ومن دون تعقيدات؟

(هيثم الموسوي)

صادق علوية

في خضمّ الأزمة الاقتصادية، يأتي عدد كبير من القضاة ليؤكدوا لنا أنهم ليسوا من بين هؤلاء. يتابعون الملفات ويستمعون إلى المتخاصمين ويصدرون الأحكام. ولكن، ما يحتاج إليه هؤلاء القضاة هو قليل من واجبات الدولة تجاه المرفق القضائي. قد تحتاج العدالة إلى ميثاق وطني عنوانه «حماية العدالة»، يبتعد عن كل ما هو مبتذل -ولو كان غير مكتوب- يوافق عليه كل أهل الحكم، ويتعهّدون فيه بالقيام بكل ما يمليه عليهم الدستور أو القوانين المرعيّة الإجراء، ما يسهم في تحقيق هدف واحد هو احترام القضاء وتيسير سبل القاضي على المتقاضين وتسهيل سبل إصدار الأحكام التي يصدرها القضاة ويساهم بها موظفو العدلية.

من الظلم القول إن القضاء في لبنان فاسد بالمطلق، فالمرفق القضائي يضمّ، كحال باقي المرافق، القضاة والموظفين ذوي النزاهة اللافتة، ومنهم الموظف النشيط الذي لا يترك واجبه، ومنهم الفاسد، ولكن الفاسدين قلّة. وإذا شاء المعنيون في الحكم مساعدة العدالة، فما عليهم سوى تنفيذ القوانين.

> إنصاف القضاة وموظّفي مرفق القضاء يستدعي إجراءات تسهّل عملهم

ضمانات القضاة

وضعت المادة 20 من الدستور أسس العمل القضائي المستقل حين نصّت على أنه يتقاضى على القانون أن يحفظ للقضاة والمتقاضين الضمانات اللازمة. وللتفصيل، مثلاً، إن ما ينبغي القيام به، إضافة إلى الإنصاف المادي للعاملين في هذا المرفق من قضاة وموظفين، هو حمايتهم من كل ضرر، كما ينصّ قانون حماية كاشفي الفساد الرقم 2018/83 في مادته السابعة، سواء كان الضرر في الإطار الوظيفي كالإجراءات التأديبية الصريحة أو المقنّعة وأي عمل، أو امتناع، أو التهديد بأيّ من الإجراءات، ما يؤثر سلباً على وظيفتهم أو عملهم، وحمايتهم من الضغوط أو الإجراءات الثأرية أو التهديدات ومن التعرض لضرر جسدي أو معنوي أو التعرض لضرر مادي بالأملاك أو بالأموال الشخصية.

أما عن تولّي قضاة لا يتجاوز عددهم الـ 600 لعمل يطاول ستة ملايين شخص (بين لبناني ومقيم)، هو أمر يستدعي الوقوف عنده. فهل من المنطق أن يتولّى قاضٍ واحد عشرة الاف دعوى؟ وهل يرضى أيّ عاقل بذلك من دون وجود جهاز بشري متكامل يعاونه ويضع بتصرفه الإمكانات المادية واللوجستية لتحقيق العدالة؟ رغم ذلك، نجد أن عدداً كبيراً من القضاة والموظفين يقومون بالعمل اليومي من دون كلل، ومن المفترض الوقوف إلى جانبهم.

إن الاستنكاف عن إحقاق الحق، أي امتناع القاضي عن القيام بواجبه، يجيز للمتضرر مداعاة الدولة بشأن المسؤولية الناجمة عن أعمال القاضي، سواء كان ممّن يتولّون الحكم أو التحقيق أو النيابة العامة وذلك وفقاً للمادة 741 من قانون أصول المحاكمات المدنية. كذلك، شُدّدت عقوبة التدخل في القضاء والتوسّط لدى قاضٍ في أي نزاع بموجب المادة الأولى من القانون الرقم 165 تاريخ 2020/05/08 (تعديل المادة 419 من قانون العقوبات)، فمن التمس من قاضٍ أي طلب متعلق بدعوى أو بمراجعة قضائية، يعاقب بالحبس من ستة أشهر إلى ثلاث سنوات وبغرامة تتراوح بين عشرة أضعاف الحدّ الأدنى للأجور ومئة ضعفه، والتي تتراوح حالياً بين 90 مليوناً و900 مليون ليرة. كما تُشدّد هذه العقوبة إذا كان الفاعل أو الشريك أو المتدخل أو المحرّض موظفاً.

تيسير الإجراءات تساعد العدالة

كان ينبغي على القوى الأمنية تطبيق قانون تعزيز الضمانات الأساسية وتفعيل حقوق الدفاع الرقم 2020/191، بإشراف القضاة، ولكن من يؤمّن للقضاة وسائل حديثة تجعل القيام بواجبهم عملاً عادياً لا يستدعي اختراع وسائل لتنفيذه، كطلب القضاة من المحققين تصوير إفادة الموقوف بهواتفهم وانتظار تحميل هذا الفيديو، إذ إن راتبه لا يمكّنه من شراء تجهيزات إزاء تقصير الدولة. فحين صادقت الأخيرة على اتفاقية الأمم المتحدة لمناهضة التعذيب وغيره من ضروب المعاملة أو العقوبة القاسية أو اللا إنسانية أو المهينة بموجب القانون الرقم 185 الصادر بتاريخ 2000/5/24 والتي جاء في المادة 11 منها بأنه يتوجب على الدول الأطراف وبقصد منع حدوث التعذيب، أن تبقي «قيد الاستعراض المنظّم قواعد الاستجواب، وتعليماته وأساليبه وممارساته»، كان يتوجب عليها تيسير هذه المهام على القاضي، وليس تخييره بين غضّ بصره عمّا يجري في التحقيق أو حرمانه من الانتقال إلى مكان التحقيق عبر محاصرته مادياً براتب لا يكفيه لعشرة أيام.

تحديث أصول الإبلاغ للخصوم هو من الإجراءات التي ينبغي تسهيلها على القضاة، ولا سيّما بعد صدور قانون المعاملات الإلكترونية والبيانات ذات الطابع الشخصي الرقم 81 تاريخ 2018/10/10، الذي عرّف في مادته الأولى «السند الإلكتروني» وعدّه كالسند العادي أو الرسمي، كما حدّده قانون أصول المحاكمات المدنية، والذي يصدر بالشكل الإلكتروني، وقد تناول التوقيع الإلكتروني كذلك، إلا أن المرسوم التطبيقي لهذه المادة لم يصدر تنفيذاً للمادة 8 من القانون نفسه. إن مثل هذه الإجراءات يسهّل عمل القضاة والمتقاضين والموظفين على حدّ سواء، فهل يعقل أنه لا يمكن إبلاغ متقاض بمستند ما أو تبليغ ما بواسطة البريد الإلكتروني؟ في حين أن معاملات بمليارات الليرات تُجرى إلكترونياً وبالضغط على زر واحد. حتى إن قانون التجارة البريّة نصّ على معاملات مُرقمنة بعد تعديله بموجب القانون الرقم 2019/126، ما يمكّن القضاة والمحققين والمتقاضين وحتى التجار من التقاضي بيُسر وسهولة ومن دون تأجيل يليه آخر.

من جهة أخرى، تنصّ المادة 98 الجديدة من قانون التجارة البريّة على أنه يتوجب «على أعضاء مجلس الإدارة، بعد تأسيس الشركة، أن يجروا المعاملات الأولية المتعلقة بالنشر عن طريق الإيداع والتسجيل لدى أمانة السجل التجاري المختصة، وذلك خلال الشهر الذي يلي التأسيس، تحت طائلة غرامة بموجب المادة الأولى من القانون (تعديل المادة 419 من قانون العقوبات)، فمن التمس من قاضٍ أي طلب متعلق بدعوى أو بمراجعة قضائية، يعاقب بالحبس من ستة أشهر إلى ثلاث سنوات وبغرامة تتراوح بين عشرة أضعاف الحدّ الأدنى للأجور ومئة ضعفه، والتي تتراوح حالياً بين 90 مليوناً و900 مليون ليرة. كما تُشدّد هذه العقوبة إذا كان الفاعل أو الشريك أو المتدخل أو المحرّض موظفاً.

تيسير الإجراءات تساعد العدالة

كان ينبغي على القوى الأمنية تطبيق قانون تعزيز الضمانات الأساسية وتفعيل حقوق الدفاع الرقم 2020/191، بإشراف القضاة، ولكن من يؤمّن للقضاة وسائل حديثة تجعل القيام بواجبهم عملاً عادياً لا يستدعي اختراع وسائل لتنفيذه، كطلب القضاة من المحققين تصوير إفادة الموقوف بهواتفهم وانتظار تحميل هذا الفيديو، إذ إن راتبه لا يمكّنه من شراء تجهيزات إزاء تقصير الدولة. فحين صادقت الأخيرة على اتفاقية الأمم المتحدة لمناهضة التعذيب وغيره من ضروب المعاملة أو العقوبة القاسية أو اللا إنسانية أو المهينة

رقمنة القضاء

أجاز القانون الرقم 2022/306 تاريخ 2022/11/3، الرامي إلى تعديل بعض مواد القانون الصادر بتاريخ 1956/9/3 المتعلق بسرية المصارف، للقضاء المختص الحق بطلب معلومات من المصارف عن أي مشتبه فيه، إذ لا يتمتع الموظف العمومي بالسرية المصرفية. فلنفترض أن القضاء أراد الاستطلاع عن الحساب المصرفي للمشتبه فيه، وأرسل كتاباً إلى جمعية المصارف وبدأت رحلة هذا الكتاب بالتجوال لأشهر، وذلك بعد تعذّر طباعته لعدم وجود مستلزمات الطابعة أو لغياب الكهرباء، فيصبح القاضي مخيّراً بين إبقاء المشتبه فيه موقوفاً لحين ورود الجواب أو إخلاء سبيله إذا ما تأخر. فماذا لو أجزنا للقاضي إرسال الكتاب بالبريد الإلكتروني وورود الجواب إلكترونياً أيضاً؟

كان يبحث القضاة، قبل المكننة ورقمنة البرامج الإلكترونية للقوانين، في آلاف الكتب والأوراق وفي مكتبات عديدة عن القوانين والأحكام والاجتهادات، أما اليوم وبعد رقمنتها من قبل شركات في القطاع الخاص والجامعة اللبنانية وبعد انتشار البرامج الإلكترونية القانونية باتت مهمّتهم أسهل، ماذا لو سهّلنا عليهم الإجراءات كافة؟

إنصاف القضاة وموظّفي مرفق القضاء لا يكون مكتملاً بالكلام عن استقلال السلطة القضائية فحسب، بل يستدعي إجراءات عمليّة تمكّنهم من القيام بواجباتهم من دون تكبّد عناء لا لزوم له.

المرحلة الثالثة

في العمق

مطالب نقابة المحامين لإعادة الجلسات في محكمة رومية

توقيف «محكمة» خلف القضبان

فاطمة خشاب درويش

بلغ عدد السجناء في لبنان مطلع النصف الثاني من عام 2023 نحو 8200 سجين، موزّعين على 229 نظارة و25 سجناً في مختلف المناطق، أكثر من نصفهم موقوفون على ذمة التحقيق وأبرياء حتى تثبت إدانتهم أمام المحكمة.

ولا شكّ في أن تسريع المحاكمات والبتّ في الملفات القضائية يساهمان بشكل واسع في خفض عدد الموقوفين وحلّ مشكلة الاكتظاظ. غير أن بعض السياسيين وذوي السجناء يطالبون بعفو عام كحلّ لأزمة السجون، علماً أن اقتراح إصدار قانون عفو أو قانون يحدّد السنة السجنية بستة أشهر سقطا في مجلس النواب ولا يوجد حالياً أي مسعى جدّي لإعادة إحيائهما. مع الانهيار الاقتصادي المستمرّ والصعوبات التي تواجهها مؤسسات الدولة، وتحديداً قوى الأمن الداخلي التي باتت تعاني نقصاً في العديد والموارد والتجهيزات والصيانة، غالباً ما يتعذّر سَوق الموقوفين إلى قصور العدل لحضور جلسات التحقيق والمحاكمة. فلماذا لا تعود جلسات المحاكمات إلى القاعة الموجودة في السجن المركزي في رومية؟ ولماذا تعترض نقابة المحامين في بيروت على إعادة عقد الجلسات في هذه المحكمة؟

«كثرة الشكاوى من المحامين بسبب الإجراءات المتّخذة بحق المحامين من التفتيش اليدوي، ومنع إدخال الهاتف، وخلع الحذاء، وغيرها، دفعت نقيب المحامين ناضر كسبار ومجلس النقابة إلى التواصل مع مجلس القضاء الأعلى لوقف العمل في المحكمة بشكل مؤقت لحين معالجة الأمر، وقد ساهم اعتكاف القضاة في اتّخاذ هذا القرار» بحسب رئيس لجنة السجون في نقابة المحامين جوزيف عبيد، مشيراً إلى أن «هذه الإجراءات جعلت المحامي مقيّداً»، معرباً عن تفهّمه لـ «مخاوف الأجهزة الأمنية من هروب السجناء، خصوصاً أنه يوجد في رومية حوالي 350 سجيناً من فتح الإسلام، لكنّ معاناة المحامي تؤثر بلا شك على أدائه وعمله».

بعد استطلاع «القوس» لآراء النقيب كاسبار وأعضاء في النقابة، تبيّن أن هناك ستة مطالب أساسية يريد المحامون تأمينها قبل موافقتهم على عودة انعقاد الجلسات و«إخلاء سبيل» المحكمة «الموقوفة»، وهي:

1. ألّا تكون الجلسات مخصّصة للقضايا من دائرة جبل لبنان حصراً بل أن تشمل قضايا من سائر الدوائر والمحافظات.
2. أن تُؤمّن آلية لوجستية آمنة لنقل الملفات القضائية إلى المحكمة في رومية بالشكل والسرعة المناسبين.
3. أن يُسمح للمحامي الدخول بسيارته وتأمين موقف خاص لركنها، أو تسهيل انتقال المحامي من مدخل السجن إلى قاعة المحكمة. يمكن أن تؤمّن النقابة «فاناً» للنقل ويفترض أن يقوده أحد العسكريين من قوى الأمن.
4. أن يُسمح للمحامي بإدخال هاتفه المحمول إذا كانت زيارته لسجن رومية فقط من أجل حضور الجلسات في المحكمة (حيث لا يُسمح له بالتجوّل خارج إطار المحكمة).
5. أن يُعلن جدول الجلسات بالتفصيل قبل يومين من انعقادها.
6. أن يكون أسلوب تفتيش المحامين مهنياً ويتناسب مع المعايير القانونية.

ولدى السؤال عن مدى إمكانية «الخلحلة» من خلال التجاوب مع مطالب النقابة لفت عبيد إلى «وجود مساعٍ لجعل التفتيش آلياً وليس يدوياً، نسعى لجمع إيرادات لتأمين هذه الآلة، الأمر الذي سيسهّل عملية تفتيش المحامين، ويوجد تنسيق مع القوى الأمنية بهذا الأمر». وأضاف

> شربل: قاعة المحكمة في سجن رومية مجهّزة بمواصفات دولية، وعودة المحاكمات فيها تخفّف الاكتظاظ

أن النقابة تعمل على تأهيل غرف المواجهة في السجن «وإصلاح بعض آليات سَوق الموقوفين ودفع بعض غرامات المحكومين والتواصل مع بعض الجهات الخيّرة لتقديم مواد التنظيف وتأهيل المراحيض، بالإضافة إلى تأهيل وتجهيز غرفة تفتيش مخصصة للنساء وغيرها من المساعدات».

80٪ موقوفون في قضايا مالية

في مقابلة لـ«القوس» مع رئيس لجنة تعديل قانون العقوبات وقانون أصول المحاكمات الجزائية المحامي أنطوان شربل، شرح أن «هناك صعوبات عديدة نظراً إلى عدم وجود آليات كافية لنقل المساجين، وإن وُجدت فالبنزين والمازوت غير متوفرين لتشغيلها، إلى جانب النقص الكبير في عديد القوى الأمنية التي تتولى عمل سَوق المساجين، إذ يتشارك موقوفون في سجن رومية، في عدد من القضايا، مع موقوفين موجودين في مختلف السجون، وهنا تبرز المشكلة ذاتها في عملية السَّوق» حتى لو أعيدت الجلسات إلى محكمة رومية. وناشد طعمة الدولة «العمل على تأمين حضور القضاة بشكل دائم ومستمر، ودعم المساعدين القضائيين للحضور بشكل دائم، حتى يتمكن المحامون من متابعة أعمالهم في المرافعة والمدافعة عن الموقوفين أو عن جهة الادّعاء. كما ينبغي تفعيل وتعديل قانون العقوبات وقانون أصول المحاكمات الجزائية. نحن نعمل في اللجنة على هذه التعديلات، خاصة أن أكثر من 80٪ موقوفون في قضايا مالية (احتيال، شيكات بدون رصيد، إساءة أمانة)». وختم: «يقتضي تفعيل المواد 107، 108 و111 من قانون أصول المحاكمات الجزائية وقانون العقوبات بأن يضع القضاة، بدل التوقيف، كفالة مالية تضمن قسماً كبيراً من الأموال التي يدّعي بها المدّعون وتحفظ مصاريف ورسوم المحاكمة التابعة للدولة اللبنانية، وفي الوقت نفسه ينقص كثيراً عدد الموقوفين، الأمر الذي يخفّف عن الدولة الأعباء المالية، إذ يكلّف السجين الواحد يومياً حوالي 20 دولاراً أميركياً ما بين طعام وشراب وطبابة وأدوية وحراسة وغيرها».

(من الويب)

محكمة بـ 2,5 مليون دولار.. معطّلة

«جُهّزت قاعة المحكمة في سجن رومية بمواصفات دولية، بتكلفة مليونَين ونصف مليون دولار أميركي» يقول الوزير مروان شربل منتقداً «إهمال القاعة وعدم الاستفادة منها، خاصة في ظل الأوضاع الصعبة التي يمر بها البلد، فهي قادرة على التخفيف من الاكتظاظ في رومية من خلال البتّ في الملفات والدعاوى القضائية للسجناء فيه».

تبلغ مساحة القاعة حوالي 250 متراً مربّعاً، فيها 12 قفص اتّهام موزّعة على ثلاث طبقات (أربعة في كل طبقة)، تبلغ مساحة كل قفص 12 متراً مربّعاً، يتّسع لعشرة أشخاص، وهو مجهّز بنظام مراقبة ومكبّر صوت وميكروفون وزجاج ضد الرصاص وعازل للصوت. تبلغ المسافة القصوى بين قوس المحكمة وأبعد قفص أكثر من 20 متراً، ما يعني أن القضاة مضطرون لاستعمال الكاميرات والميكروفونات للتواصل مع بعض الموقوفين.

عُقدت في المحكمة جلسات عام 2012 لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، قبل أن يتوقف العمل فيها. وفي حزيران 2020 أعلنت «لجنة الرعاية الصحية في السجون» عودة جلسات المحاكمة في قاعة المحاكمات في رومية، إلا أن المحاكمات ما لبثت أن توقفت عن العمل بعد كثرة الشكاوى من المحامين في عهد نقيب المحامين الحالي ناضر كسبار نتيجة معوقات واجهت المحامين خلال عملهم.

افتُتحت في حزيران 2012 بهدف تسريع الإجراءات القضائية للموقوفين من ذوي الخصوصية الأمنية (المعروفين خطأ باسم «الإسلاميين»). وفقَ ما اعلن حينها وزير الداخلية والبلديات مروان شربل الذي أكّد يومها ان «المحكمة لم تنشأ فقط لمحاكمة هؤلاء. ويمكن تطوير عملها البتّ في طلبات إخلاء السبيل». إلا انه بعد كل هذا الوقت، لم يُستفد منها بالشكل المطلوب. فلماذا لا تُستخدم هذه القاعة لتسريع المحاكمات والتخفيف من اكتظاظ السجن المركزي؟ وما هي المعوقات التي تحول دون ذلك؟

في العمق

«لا يجوز معاملة من ينقل ويحوز المخدرات بقصد التعاطي كمن ينقلها من أجل تحقيق الارباح، ويجب التفتيش عن غاية عملية النقل وهدفها ليصار إلى إعطاء الوصف الملائم الجنحي او الجنائي»، هذا ما جاء في احد قرارات محكمة الجنايات - البقاع (رقم 2014/341). لكن في الواقع الحالي، لا يزال خلط التهم الثلاث، التعاطي والترويج والاتجار، مستمراً، حتى بات عُرفاً لدى المتّهمين بإحداها فنسمعهم يتداولون جملة: «حطّولي الـ 3 مواد». كيف يمكن الحديث عن العدل والإنصاف في حال إدراج التعاطي الشخصي تحت إطار الترويج او الاتجار، وتوحيد العقوبة؟

ثلاثية الاتهام: تعاطٍ وترويج واتجار

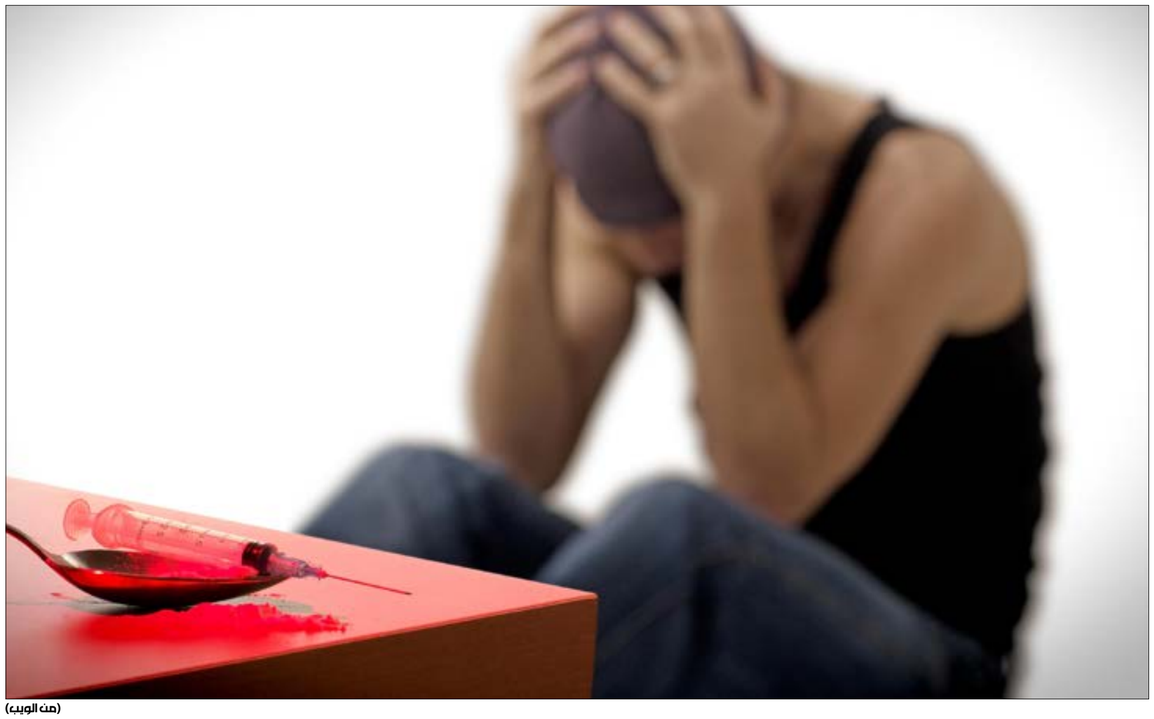
(هت الويب)

فداء عبد الفتاح

خالد، موقوف منذ أربعة عشر شهراً بتهمة وجود حبّتَي ترامال ودفتر لف سجائر في جيبه، أوقف خلال مداهمة وتوقيف عدد من المطلوبين بجرم الترويج والاتجار بالمخدرات، حيث صودف وجوده في المكان.

استُمع إلى خالد وأُخضع للفحص الذي يجريه مكتب مكافحة جرائم المخدرات، وكانت النتيجة سلبية: لا وجود لأي مخدر في دمه، علماً بأنه اعترف بأنه يدخّن حشيشة الكيف، لكن وجود الحبّتَين في جيبه كان كافياً لتوقيفه وتوجيه ثلاثية الاتهام بحقه في القرار الظنّي: تعاطٍ، وترويج، واتجار.

رائد، شاب لبناني مقيم في أوروبا، زار لبنان آخر مرة عام 2018، ليتبيّن بعد مغادرته أن في حقه مذكرة توقيف غيابية بدعوى مخدرات. كان الحظ حليفه، إذ عاد إلى أوروبا قبل تعميم المذكرة التي كانت ستقضي على حياته المهنية هناك، لأن القرار الظني المؤلف من 12 صفحة لم يأتِ على ذكر رائد إلا عرضاً من خلال محادثة هاتفية مع صديقه الذي ضُبطت معه حبوب كبتاغون وحشيشة الكيف في المطار، علماً أنه لا يوجد أيّ دليل على وجود أيّ علاقة لرائد بتعاطٍ أو ترويج أو اتجار بالمخدرات. رغم ذلك، أصدرت مذكرة توقيف غيابية بحقه وصدر القرار الظني به بثلاثية الاتهام: تعاطٍ، وترويج، واتجار.

تقول إيفا (20 عاماً) إنها تعاطت المخدرات لأول مرة بعمر الـ 14 عاماً، عندما كانت برفقة أحد أصدقائها الذي «ضيّفها» سيجارة حشيشة، لم تدرك حينها إلى أين ستأخذها هذه «التنفيخة» التي أزعجتها في البداية، لكنها اعتادتها بعد كل مرة، فهي «مجرد سيجارة برفقة من تحب» بعيداً عن أعين أهلها الغارقين، بحسبها، في ملذّاتهم ومشاكلهم الشخصية، متجاهلين وجود طفلة متروكة بين أيدي القدر.

دخلت إيفا السجن بعدما أوقفت مع صديقها وهي لم تُكمل عامها الثامن عشر، فحوكمت كقاصر بجرم التعاطي، وقد أوقفت احتياطياً أكثر من تسعة أشهر كانت كفيلة بخراب حياتها قبل أن تبدأ.

نهج النيابات العامة في ملفات المخدرات

يفاخر القضاء اللبناني وتحديداً النيابات العامة بأنها تتشدد في تطبيق مواد الاتهام في جرائم المخدرات، وبأنها لا تتساهل أو تساوم في قبول طلبات إخلاء السبيل أو استرداد مذكرات التوقيف الغيابية لمجرد أن القرار الظني الاتهامي وجّه للمدعى عليه اتهاماً بالتعاطي والترويج، بغض النظر عن مدى صحة هذا الاتهام أو مدى جدية الأدلة التي استند إليها في التحقيقات الأولية. هذا الأمر يشكل انتهاكاً صارخاً لحقوق المتهم بالدفاع عن نفسه من خارج التوقيف، لأن العديد من الحالات تظهر براءتها بعد وصول الملف إلى المحكمة، إذ يتبيّن عدم جدية التحقيقات الأولية وغياب الأدلة القاطعة على توفّر جرم الترويج أو الاتجار وإن توفّر جرم التعاطي.

ولأن النيابات العامة تتشدد في طلبات إخلاء السبيل أو استرداد مذكرات التوقيف الغيابية في هذا النوع من الجرائم، نرى أن بعض المتهمين يفضلون الهرب من وجه العدالة على المثول أمامها وإن كانوا متأكدين من براءتهم، بسبب الإجراءات المتّبعة خلال التوقيف الاحتياطي. وحتى يصل الملف إلى المحكمة، قد ينتظر المتّهم شهوراً وربما سنوات ليثبت براءته مما نُسب إليه. هذا الواقع لا ينطبق بالضرورة على المتّهمين بتجارة المخدرات الفعليين لأنهم، بغالبيتهم، يملكون ما يكفي من المال والنفوذ لحمايتهم من هذه الإجراءات إلى حدّ كبير.

فكيف تحسب النيابات العامة أن تشددها بتطبيق النص يحمي الشباب ويحدّ من انتشار هذه الآفة، وهي بتعميمها لهذه القواعد تجعل من مئات الشبّان «طفّاراً» أو «مطاليب» فارّين من وجه العدالة، وهذه الصفة الأخيرة قد تؤدي بهم إلى استسهال ارتكاب الأخطاء ومخالفة القوانين ما دامو غير محميين قانوناً، ومهددين لمجرد توفّر الشبهة بالاحتجاز الذي يصبح تعسفياً نتيجة غياب آليات الحق بالدفاع والمحاكمة السريعة والعادلة.

كما أننا لم نشهد، بعد التشدد في تطبيق مواد الاتهام في قانون المخدرات، أيّ انخفاض في نسب الملاحقين في هذا الجرم، أو في نسب الموقوفين والمحكومين، أو المتعاطين، بل على العكس. وقد تحدثنا في مقال سابق عن الاكتظاظ في السجون ونهج النيابات العامة في إخلاءات السبيل وعدم الالتزام بمدة التوقيف الاحتياطي في معظم الملفات، سواء في الجنح أو الجنايات، وإن المعاناة من الاكتظاظ ومن ارتفاع نسب الجريمة لا تقابلها أي سياسات أو برامج تهدف إلى الحد منها، إنما تقف السلطة القضائية على حرفية النص في حالات وتتجاهل النص كلياً في أخرى، ملتزمة بتطبيق نهج السلطة السياسية أولاً ومتجاهلة أي دور لها تجاه المجتمع وحمايته. (راجع «القوس»، 25 آذار 2023، «المتّهم مدان حتى تثبت براءته»).

وأشرنا في مقال آخر، حول ارتفاع نسبة مدمني المخدرات، إلى أن 2750 هو عدد المحكومين والموقوفين في قضايا المخدرات في السجون اللبنانية من أصل حوالى 8300 محتجز، وأن حوالى 1000 شخص يتوجهون أسبوعياً إلى المستشفيات الحكومية لتلقي العلاج الذي أصبح بالفريش دولار وليس بمتناول كل المدمنين. (راجع «القوس»، 25 شباط 2023، العلاج بـ«الفريش»؟)

هل تعني هذه الأرقام شيئاً للسلطة القضائية وللمعنيين عن تطبيق سياسات الحد من تفشّي المخدرات؟ ألا يقتضي الواقع الخطر الذي يعيش فيه شبابنا وشاباتنا أن نضع على طاولة البحث خططاً للحد الفعلي من هذه الآفة بعيداً عن أسلوب العقاب والترهيب والتأديب ومن دون أي برامج تأهيل علاجية نفسية اجتماعية وتربوية سابقة ولاحقة لطريق الإدمان؟

قد يصل بعض الأهل المكتوين بابن مدمن إلى بيع كل ما يملكون لتأمين تكاليف التقاضي المرهقة في دعوى

> يقع تمويل المسار العلاجي من الإدمان في القانون على عاتق الدولة اللبنانية، إلّا انه يُمنع تطبيقه ويبقى حبراً على ورق

> التشدد بتطبيق النص يجعل المئات من الشبان طفاراً أو مطلوبين فارين من وجه العدالة

مخدرات وتأمين حاجيات ابنهم في السجن لمدة زمنية ليست بسيطة، ومن المتعارف عليه بين المحامين والمتهمين في قضايا مخدرات ان هذه الملفات تكلف الاف الدولارات، وخاصة إذا كان المتهم مداناً بثلاثية الاتهام: تعاطٍ وترويج واتجار.

مع العلم أن ليس كل من يُحال بموجب قرار ظني أو مضبطة اتهام بجرم التعاطي والترويج والاتجار هو كذلك، لأن المحاكمة قد تؤدي إلى البراءة وخاصة لناحية الترويج والاتجار إذا كان المتهم متعاطياً فعلياً للمخدرات ولكنه ليس مروجاً ولا تاجراً.

فلا يكفي أن يعتمد التحقيق الأولي أمام الضابطة العدلية، والذي يعتمد عليه بشكل اساسي قاضي التحقيق لإصدار قراره الظني كما الهيئة الاتهامية لإصدار قرارها الاتهامي، على أدلة شكلية أو غير كافية للتثبت من تحقق جرم الترويج والاتجار والذي يتطلب دقةً وإحساساً عالياً بالمسؤولية من المحقق الذي سيأخذ الإشارة بالتوقيف أو عدمه من النائب العام بناءً على ما سيقوله له بعد انتهاء الاستنطاق الأولي أو التحقيق الأولي. وليس خافياً على أحد أن بعض التحقيقات قد تبرّئ التاجر وتدين المتعاطي بالتجارة وفقاً لقاعدة تفشّي الفساد والرشى المعلومة وغير الخفيّة على أحد.

هذا الواقع يستدعي دقة وتأكيداً غير قابلين للشك على تحقّق شبهة الترويج أو الاتجار التي يؤدي الاتهام بها، وفقاً لقانون المخدرات اللبناني، إلى نتائج كارثية على المتهم. وليست حالة رائد التي ذكرناها سوى نموذج بسيط لحالات كثيرة اتُهم فيها شبّان بمواد الترويج والاتجار (المادة 125 من قانون المخدرات) استناداً إلى أدلة ليست قطعية، الأمر الذي يجعل مثولهم أمام القضاء للدفاع عن أنفسهم غير ممكن من خارج التوقيف، إذ يؤدي ذلك إلى زيادة عدد الهاربين من وجه العدالة لخوفهم من الإجراءات التي يأخذها مسار ملف مخدرات موسوم بثلاثية الاتّهام.

جنحة «قابلة للشفاء»

يتضمن قانون «المخدرات والمؤثرات العقلية والسلائف» الرقم 673، 1998، في نصف مواده تقريباً آليات للعلاج ما قبل الملاحقة وخلال الملاحقة ضمن مسار واضح قد يساهم، بنسبة كبيرة، بوضع حدّ لتفشّي هذه الظاهرة. إلا أن الشق المرتبط بتمويل هذا المسار، الذي من المفترض أن يقع على عاتق الدولة اللبنانية، يُمنع تطبيقه ويبقى حبراً على ورق.

- العلاج التلقائي:

نصّ قانون المخدرات في الباب الثاني منه على مكافحة الإدمان على تعاطي المخدرات، وعلى تدابير العلاج والرعاية (الفصل الأول، المادة 182)، وعلى العلاج التلقائي قبل الملاحقة (من المادة 183 إلى المادة 190). إذ يمكن لكل مدمن على المخدرات أن يتقدم تلقائياً وقبل إجراء أي ملاحقة ضده من لجنة مكافحة الإدمان بطلب إخضاعه لتدابير العلاج الجسماني والنفساني، ويحق لطالب العلاج أن يخفي هويته إلا على من هم ملتزمون بسرية المهنة كالأطباء والمحامين ويوقّع تعهداً بذلك أمام اللجنة المتابعة العلاج إلى أن يشفى بالكامل ويحصل على إفادة بذلك (المادة 183). وحدد القانون آلية متابعة العلاج عبر اختصاصيين اجتماعيين من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية وتقديم تقرير عن حالة المدمن النفسية والاجتماعية والعائلية والمهنية للجنة مكافحة الإدمان.

كما حدّد القانون أن على لجنة متابعة العلاج من الإدمان إصدار قرار بالإفراج عن المريض من المصحّ وتلزمه بزيارات دورية لعيادة علاج نفسي - اجتماعي لمدة لا تقل عن ثلاثة أشهر، وعلى الطبيب المعالج أن يقدم تقريراً عن حالة المريض، وللّجنة الحق في زيادة المدة إذا رأت أن هناك ضرورة لذلك، ويحق للمريض أن يعترض على قرار اللجنة أمام الهيئة الاتهامية خلال 15 يوماً.

كما أن على المدمن متابعة العلاج بشكل كامل ليحصل على إفادة شفاء تام من المركز المختص يعفى بموجبها من الملاحقة وتبقى نفقات العلاج على عاتق الدولة، أمّا إذا تبيّن أن المريض توقف عن متابعة العلاج أو انقطع عنه فيُصار إلى ملاحقته وفقاً للأصول وتكون إدارة المصحّ والطبيب النفساني ملزَمين بإبلاغ اللجنة بذلك (المادة 189).

إن تكاليف ما ذُكر في العلاج التلقائي هي -وفقاً لقانون المخدرات- على عاتق الدولة، الأمر الذي يُعدّ إحدى اهم العقبات أمام شريحة كبيرة من المدمنين، كونهم غير قادرين على تحمّل تكاليف العلاج على نفقتهم الخاصة. في المقابل، ليس لدى الدولة اللبنانية أي إمكانيات لتحمّل تكاليف هذا الشق العلاجي من القانون. لذلك، من يرغب بالتقدم بطلب العلاج التلقائي قبل الملاحقة، عليه أن يذكر في الطلب أنه سيتحمل كلفة العلاج كاملاً. هذا ما حصل مع عائلة الشاب خالد (25 عاماً) وهو مدمن على تعاطي الكوكايين، إذ تقدّموا عبر وكيل قانوني بطلب إحالته إلى لجنة مكافحة الإدمان على نفقة العائلة، فوافقت الهيئة الاتهامية على طلب استرداد مذكرة التوقيف الغيابية المحال بموجبها إلى المحاكمة بجرم التعاطي وأوقفت الملاحقة بحقه. بيد أن معاناة الأهل -القادرين على علاج ابنهم- ظهرت في أكثر من مرحلة، بدءاً من إيجاد مكان مختص لعلاج حالات الإدمان المزمن، وصولاً إلى التكلفة الباهظة الملزمين بدفعها لمدة سنة تقريباً، إذ وصل المبلغ إلى 150$ شهرياً في أحد المراكز التي تعدّ جيدة، وذلك من دون تكلفة العلاج والأدوية.

- العلاج الإجباري:

أعطى قانون المخدرات لأفراد العائلة الحق بالطلب من الجهات المختصة التدخل لعلاج أحد أفرادها المدمنين، إذ نصّت المادة 191 منه على أن: «للوالدين والوصيّ والولي وأحد الزوجين أن يطلب من لجنة الإدمان إيداع الابن أو الابنة القصّر أو المولى عليهم أو الزوج الذي يشكو من إدمانه على تعاطي المخدرات أحد المصحات للعلاج».

كما نصّت المادة 192 على أنه: «لأيّ كان يعلم بوجود شخص معروف بخطورته على الغير بسبب إدمانه على تعاطي المخدرات أن يبلّغ الأمر إلى النيابة العامة التي تجري تحقيقاً في الأمر ويكون لها إحالة المدمن على لجنة مكافحة الإدمان لإرغامه على العلاج عند الاقتضاء قبل البتّ بموضوع الملاحقة».

أعطت هاتان المادتان حماية سابقة إلزامية للمدمنين على المخدرات، قبل الزج بهم في السجون وتحويلهم من متعاطين إلى تجّار ومروّجين، لأن هذا ما يحصل على أرض الواقع في سجون لبنان البعيدة كل البعد عن التأهيل. إلا أن العقبة في التطبيق مرتبطة بالجهة المخوّلة بتأمين الإنفاق على هذا العلاج.

- العلاج أثناء التحقيق والمحاكمة والحكم:

نصّ قانون المخدرات في الفصل الرابع على حق المدمن بطلب العلاج خلال السير بالمحاكمة (المادة 193 إلى المادة 204) وفي أي مرحلة من مراحلها حيث تتوقف الملاحقة فوراً ويُحال المدمن إلى لجنة مكافحة الإدمان وتطبّق الأصول المتّبعة في المواد 184 حتى 190.

وفي حال توقف المدمن عن العلاج أو رفض الالتزام به، يبلغ الأمر إلى المرجع القضائي الذي يستأنف ملاحقته من النقطة التي وصلت إليها. وللمحكمة الحق بإحالة المدمن الذي رفض العلاج مسبقاً وبأن تصدر قراراً مؤقتاً بوضعه قيد العلاج الإلزامي، وفي حال عاد والتزم بالعلاج حتى نهايته تصدر قراراً بمنع المحاكمة عنه نهائياً (المادة 196). أما إذا رفض العلاج نهائياً وثبت بحقه جرم التعاطي فيحكم عليه بالعقوبات المنصوص عليها في المواد 127 و130 من قانون المخدرات وهي عقوبة الحبس من ثلاثة أشهر إلى ثلاث سنوات وبالغرامة. وإن لم يكن مكرراً أو قاصراً أو تعهّد بعدم التكرار وتلقى العلاج، يُمنح وقف تنفيذ العقوبة أو يُعفى من تنفيذها، سنداً للمادة 130.

باب العلاج باب الأمل

هو الباب الذي يجب أن يُفتح على مصراعيه وأن تبذل الحكومة والوزارات المعنية والسلطة القضائية جميع الجهود الممكنة لتطبيق مواده والتأكيد عليها، لإعادة فتح باب الأمل أمام الجيل الحالي الذي بات لا يثق بمؤسسات الدولة ولا بالقضاء. جيلٌ قد جعلته أزمات البلد المتتالية حاقداً على نفسه وعلى المجتمع، وليست المخدرات أو الكحول أو الألعاب الإلكترونية وغيرها الكثير من أشكال الإدمان، سوى متنفس أو طريق للهروب من واقع لا يقدّم لهم سوى قوانين كثيرة لا تكاد تُطبّق، والقليل من العدل والإنصاف.

لهذا، فإن عشرات السنوات التي تشدّدت الدولة فيها بتطبيق نصوص التجريم في قانون العقوبات لم ينتج منها سوى الآف الفارّين من وجه العدالة «الطفّار» ومئات الموقوفين وعشرات القتلة وأرقام لا تحصى من شبّان عاطلين من العمل ومهدّدين بالجنوح والانحراف. فمتى ستبدأ معركة تطبيق الباب العلاجي في هذا القانون وإيجاد حل لثغراته، وخاصة لناحية تأمين التمويل الكافي لاستفادة أكبر عدد ممكن من المدمنين المرضى، ومتى ستبدأ أهم مرحلة استثمار في بناء الوطن «الاستثمار بالبشر»؟

تطوّر قوانين المكافحة

بدأ لبنان حربه على المخدرات بداية في قانون العقوبات الصادر عام 1943 في المادتين 630 و631 اللتين ألغيتا بعد صدور قانون يتعلق بالمخدرات بتاريخ 1946/6/18. والذي ألحق به المرسوم الرقم 6255 تاريخ 1954/9/8 المتعلق بتجارة المخدرات، والقانون الصادر بتاريخ 1956/8/20 المتعلق بتنظيم زراعة القنب الشامي، وفي 1960/5/4 صدر القانون الذي عدّل قانون 1946 بالمرسوم الرقم 4030. وآخر تعديل كان القانون الرقم 673 تاريخ 1998/3/26 بشأن المخدرات والمؤثرات العقلية والسلائف. وفي عام 2001 صدر القانون الرقم 318 الذي نصّ على جرم تبييض الأموال تبعاً لإمكانية وقوع التبييض على الأموال القذرة الناتجة من الاتجار غير المشروع بالمخدرات.

يجدر الذكر أن العالم قد بدأ بمحاربة المخدرات «قانوناً» من خلال مؤتمرات دورية عدة عقدتها الأمم المتحدة بشأن مكافحة المخدرات، وقد نتجت منها أن الاتفاقية الوحيدة للمخدرات التي أقرّتها الهيئة العامة للأمم المتحدة في عام 1961، ثم عُدّلت في عام 1972.

تحت القوس

الخروج من جحيم المخدرات

بشرى زهوة

يخضع بعض الأحداث إلى رقابة شديدة من الأهل، ما يجعلهم أكثر ميلاً لتجربة ما هو «ممنوع» في الخفاء، فـ«كلّ ممنوع مرغوب». الأمر سيّان في حال إهمال الأهل للأولاد، ما قد ينتج فراغاً خفياً، ونقصاً في التوجيه والاحتضان يؤدي بهم غالباً إلى سلوكيات منحرفة ومنها تعاطي مواد مخدّرة تملأ هذا الفراغ، متوهمّين بأنها حلّ لمعاناتهم. وهنا يأتي فعلاً دور الأسرة في حماية الأبناء من وباء المخدرات أو مقاومته، من دون التشدّد غير المُقنّن في تطبيق الرقابة.

ابني يتعاطى المخدرات، فما العمل؟

يعيش الأبناء في هذه المرحلة داخل متاهة ويكونون في حاجة ماسّة إلى الاحتضان والإرشاد النفسي والتوجيه، ولو أنكروا ذلك. وتختلف طريقة تلقّي الخبر والتعامل معه بحسب الخلفية التي ينحدر منها الأهل، فمنهم من يمرّ، وفقاً لبعض الأبحاث، بمراحل الحزن الخمس (كيوبلر روس): الإنكار، والغضب، والمساومة، والاكتئاب، ثمّ التقبّل. بينما يواجه آخرون الابن ويجبرونه بالقسوة على العلاج من دون أي نقاش أو فهم الأسباب خلف إقدامه على ذلك. وهناك من ينفعل متطرفاً ويطرد ابنه من البيت. وفي حال تبرّأ الأهل من ابنهم، إلى أين سيذهب؟

يخشى بعض الأهالي نظرة المجتمع، ووصمة «العار» التي، بحسبهم، تُلصق بالعائلة مدى الحياة، وقد يكون هذا سبباً لامتناعهم عن رفع الصوت وإخضاع أبنائهم إلى العلاج خوفاً من كلام الأقرباء أو حتى الغرباء (كالأطبّاء والاختصاصيين).

في لبنان 26 مؤسسة تقدّم خدمات علاج الإدمان وإعادة التأهيل، موزّعة على 4 محافظات ومتعاقدة مع وزارة الصحة العامة إمّا لإزالة السموم أو للعلاج. ومن الضروري أن يترافق العلاج الدوائي (Detoxification) مع العلاج النفسي أو المعرفي السلوكي (Rehabilitation) للمتعاطي والمدمن كي يصل إلى قناعة بأن هذه الآفة تفتك به وبصحته، ويتقبّل الإقلاع عنها طوعاً.

قد يغفل البعض أن هناك «مخدرات» مشروعة ومتاحة للجميع في المتاجر وحتى في الأكشاك على أرصفة الطرقات، مثل الكحول بمختلف أنواعه والتبغ، إذ يلجأ إليها كثيرون ويدمنون عليها. وفي ظل انتشار الفساد لا مانع لدى الكثير من الباعة، تزويد من هم دون الـ 18 بهذه المواد.

مهما تكن الخلفية الثقافية والاجتماعية للأهل، من المفترض في الزمن المأزوم الذي نمرّ به، توقّع الأسوأ من البيئة التي يكبر فيها الأولاد. ولا بد من مواجهة الآفات بدقة واستعداد، والتسلّح بطرائق تربوية وقائية. وفي حال وقوع الأمر، السعي بجهد إلى إجراء، ما يلزم بالتعاون مع مراكز العلاج أو الاختصاصيين النفسيين والتربويين، لإنقاذ من تورّط، خصوصاً الشباب، من جحيم المخدرات قبل أن ينتقلوا إلى سقر السجون.

قانون المخدرات والجداول الملحقة

متابعة

الأزمة الاقتصادية مستمرة، وصعوبات المقيمين تتفاقم. استقرار سعر صرف الدولار في الآونة الأخيرة، مع تعديل رواتب القطاع العام، لا يعنيان اختفاء الأزمة ولا أن الانفراج بات قريباً. هذه التعديلات لا تلبّي الاحتياجات الأساسية لموظفي القطاع العام، أو حتى القطاع الخاص، مع ارتفاع أسعار المواد الغذائية والمحروقات وارتفاع فواتير الكهرباء والطبابة والتعليم. تكاد هذه الأجور تغطّي تكاليف النقل من الوظيفة وإليها. مع ذلك، نلاحظ استمرار الموظفين من مختلف القطاعات العامة بالحضور إلى عملهم لحسن سير هذه المرافق، ومنهم المساعدون القضائيون داخل قصور العدل. فبعد اعتكاف القضاة الذي دام حوالي خمسة أشهر سنة 2022، استمر المساعدون القضائيون، رغم الظروف نفسها التي عاشها القضاة، بالحضور إلى قصور العدل. ولا يزالون حتى اليوم مستمرين في عملهم وملتزمين بدواماتهم. ولكن، إلى متى سيصمد المساعد القضائي ويستمر بالعمل إذا لم توفّر له الظروف اللازمة لذلك؟

معاناة مستمرة

المساعد القضائي «كبش محرقة»

أحمد مدلج

عادت الزحمة إلى أروقة قصور العدل. الأصوات الصاخبة، والملفات التي لا تنتهي، وضغط العمل اليومي في غرف نادراً ما ترى النور ويقتصر العمل داخلها على أضواء الهاتف الخلوي منذ الصباح الباكر حتى مجيء الكهرباء. أما في المضمون، فالظروف المعيشية لموظّفي قصور العدل اختلفت كلياً، من دون أي نية صريحة وجدية لتعديل الأجور بما يتناسب مع الغلاء المعيشي. وفوق كل ذلك، غالباً ما يعاتب بعض القضاة أو المحامين المساعد القضائي لتقاعسه وإهمال واجباته، داعين إيّاه لبذل المزيد من الجهد، غافلين عن الأوضاع الاقتصادية التي يعيشونها معاً.

«إذا بدنا حقوقنا بيقولوا عم نِنقّ»

«رغم كل شي الشغل مستمر

لان عنّا ضمير، بس لأيمتى؟ المعاش بالبنك ما بيسكبنا دولار إلا القليل. شو عملت؟ بعت شقفة أرض لإستمر، بس غيري ما عندو هيدا الخيار. وحتى إذا ضلّ الوضع هيك أنا ما رح إقدر كمّل»، يقول رامي، وهو كاتب ومساعد قضائي في قصر عدل بعبدا، لـ«القوس»، متحدثاً عن صعوبة العمل في ظل رواتب فقدت قيمتها. يلفت إلى أنه يسكن في شحيم وراتبه يبلغ ستة ملايين: «الطريق من بيتي إلى بعبدا بتكلّف 700 ألف، ودوامي يعادل ثلاثة إلى أربعة أيام يعني 14 يوماً بالشهر. تكلفة بدل النقل تفوق راتبي بمليونَين أو ثلاثة ملايين ليرة». يكرر رامي الأرقام ذاتها، حاملاً هاتفه الخلوي ليبرز الرسالة الشهرية التي يتلقاها من حسابه المصرفي عن تحويل مستحقاته التي لا قيمة لها ويضيف: «من بدل نقل لدفع الاشتراك وفاتورة الكهرباء، وبعد ما ذكرت أقساط بنتي المدرسية يلي بتبلغ 1000$ وبدّهم نشتغل بكل روّق ولا كأنو في شي!». يذكر رامي أن اجتماعاً عُقد الثلاثاء الماضي تضمّن طلب القضاة بأن يُضاعف المساعد القضائي مجهوده للعمل كي «نشغّل قصر عدل بعبدا متل قبل. إنو إيه منشتغل بس هل في رواتب وظروف أفضل؟»، يأتي الجواب: «الحل مش عنا. كيف ممكن يفرضوا عمل إضافي وهني عايشين الأزمة ذاتها؟ بيقولوا متفهمين بس الحل مش عنا. ما بقى عنا القدرة. الكل بيقول شغلتنا النّق. طيب ليش ما حدا بيسعالنا لتحقيق مطالبنا؟ كيف بدّهم ننزل نداوم أكتر والقاضي أوقات ما بيجي إلا نهار واحد؟».

تُعدّ محافظة جبل لبنان ثاني أكبر محافظة، إذ تبلغ مساحتها 1958 كيلومتراً مربّعاً، وتشهد اكتظاظاً سكانياً. ووجود قصر عدلي واحد في بعبدا للمحافظة كلّها، لا يمكن أن يلبّي العدد الهائل من الزوار، ما يجعل عمل القاضي كما مساعده أكثر صعوبة. وبالانتقال من بعبدا إلى بيروت، هل يعاني المساعد القضائي في قصر عدل بيروت من الإشكالية نفسها؟

التواصل والتضامن يحلّان الكثير من المشاكل

توضح نسرين، وهي مساعدة قضائية في قصر عدل بيروت، أن العلاقة بين القضاة والموظفين متينة. «صحيح أن المساعد القضائي أساسي لتسيير المحكمة، لكن دوره يتكامل مع القاضي». وتضيف: «الأزمة وضعت حال الجميع تحت الصفر، وأثّرت سلباً على الموظف. ولكن، من المفترض أن يكون لدى الموظف حس إنساني للعمل وتيسير ملفات الجميع عملاً بمبدأ العدالة. مثل ما لازم نعمّم بوجود قضاة فاسدين كمان نفس الشي منقوله عن المساعد القضائي. صحيح إنو في مساعدين قضائيين ما بيشتغلوا إلا بالرشى وتحديد موعد جلسات حسب المبلغ، بس هيدا الشي كمان ما بينطبق عالكل». وعن دوام العمل داخل محكمة جنايات بيروت تقول: «القضاة يحضرون دائماً والأحكام لا تتكدّس، والتكامل بيننا وبين القضاة هو عبارة عن خطة عمل تتضمّن التواصل مع بعضنا بعضاً، حتى في أوقات بيجي الموظف خمسة أيام». يختلف وضع نسرين عن المساعدين القضائيين الآخرين، إذ إن مكان سكنها على بُعد دقائق من قصر عدل بيروت، ولذلك لا تتكبد أي تكاليف على التنقل. ووفقاً لها فإن «القضاة لا يتلكأون. وإذا غاب قاضٍ ما، يقوم الرئيس الأول بتأمين بديل ونعمل بصورة طبيعية. بالنسبة إلى ظروف العمل، يمكن نحن أكثر قصر عدل عم نقدر نحلّ مشكلاتنا لأنو في تواصل وتفاهم. ولا يوم تاجلت المحكمة لعدم اكتمال الهيئة. فمثلاً إذا لم يأت الموقوف متواصل مع القاضي لحتى ما يجي. هذه العلاقة سهّلت وتيرة العمل».

لا راحة لقاض من دون مساعد «مرتاح»

تتكرر إضرابات موظفي القطاع العام الذين تدهورت رواتبهم جرّاء انهيار قيمة الليرة منذ عام 2019، كما تشير المحامية عبير محمود عرابي لـ«القوس»، ومن ضمنَ هؤلاء موظفو قصور العدل. إلّا أن لهذه الفئة أهمية خاصة نظراً إلى ما يرتبط بهم من تقرير مصير حياة كثير من الموقوفين والقضايا المصيرية. ناهيك عن أن وضع قصور العدل بات يشكل عبئاً إضافياً على كاهل هؤلاء، حيث لا كهرباء ولا ماء ولا احتياجات مكتبية أساسية من أقلام وأوراق. تضيف عرابي أن المساعد القضائي يقوم بتسيير هذا المرفق بزيادات في الراتب «أقل ما يقال عنها إنها فتات، في الوقت الذي بدأ فيه القضاة إضرابهم». وتؤكد أن المساعدين القضائيين هم العنصر الأساس في عمل السلطة القضائية، إذ لا عمل لقاضٍ من دون مساعد قضائي، فهو مَن يتولى تنظيم الملفات والجلسات وتبليغ المدّعين والمدّعى عليهم وتنفيذ قرارات السلطة القضائية. «رغم كل الوعود التي قُطعت على المساعد القضائي، لكنها بقيت وعوداً ولم يتغيّر شيء. في الوقت الذي نرى فيه أن رواتب القضاة قد تحسّنت، وإن بشكل استطرادي، حتى عادوا عن إضرابهم». تلاحظ عرابي أن «هناك فرقاً واضحاً بين تعديل رواتب هاتين الفئتين. فبقيت رواتب الموظفين متدنية نظراً إلى الوضع المعيشي الصعب، في حين أن رواتب القضاة تحسّنت، من دون أن ننسى أن لكل شخص فئته». وعن حضور الموظفين إلى قصور العدل لاحظت عرابي أن «الموظف مجبر على الحضور بحد أدنى من الأيام، وإن لم يحضر يوجّه إليه تهديد. في حين أن القضاة غير ملزمين بالحضور يومياً. يمكن للقاضي مثلاً ألّا يحضر ولا يبتّ بإخلاء سبيل، بينما في حال لم يحضر المساعد مع القاضي عند إخلاء سبيل، تبدأ سلسلة من الإجراءات التأديبية، مع الإشارة إلى أن الواقع المرير يضغط على الاثنين». وتخلص إلى أن «من حق القاضي أن يحصل على حياة كريمة ورفاهية تؤمن له تسيير مرفقه، إلا أن الظلم بات يطاول الجميع ومن ضمنهم موظفو قصور العدل الذين من حقهم أيضاً الحصول على حياة كريمة، فلا راحة لقاضٍ أثناء وظيفته من دون مساعد قضائي مرتاح».

المحاسبة الشفافة

«حتى ما قبل أحداث 2019 وجائحة كورونا، المشكلة كانت نفسها، من تراكم الملفات، والبطء في إجراء المعاملات. والسبب الرئيسي لذلك النقص في عدد القضاة، فكيف الحال اليوم في ظل ظروف صعبة؟» تقول المحامية هلا حمزة لـ«القوس». من يتحمّل المسؤولية: القاضي أم المساعد القضائي؟ بحسب حمزة «كل موظف تابع لقاضٍ. فالمسؤولية الأولى تقع على رئيس

> **الطريق من بيتي إلى بعبدا بتكلّف 700 الف ليرة في اليوم، ومع دوام يعادل 14 يوماً بالشهر، تفوق كلفة بدل النقل راتبي بمليونين او ثلاثة ملايين ليرة**

دوام العمل الرسمي

نصّت المادة 23 من القانون الرقم 46 تاريخ: 2017/08/21 على أن دوام العمل الرسمي هو من 32 ساعة إلى 35 ساعة أسبوعياً تتوزع على الشكل الآتي:
- أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس: من الثامنة صباحاً حتى الخامسة عشرة والنصف.
- يوم الجمعة من الثامنة صباحاً حتى الخامسة عشرة، على أن تُعطى ساعتان للصلاة.

نقاش

موسيقى في سجن الأحداث
فرصة ثانية

أميرة سكّر *

عندما قرر مؤسسو الاتحاد لحماية الأحداث في لبنان، وعلى رأسهم الرئيسان ألفرد نقاش وسامي الصلح، في عام 1936 تأسيس الاتحاد، كان الهدف الأسمى هو حماية القاصرين على جميع الأراضي اللبنانية، وتسيير ودعم الجمعيات الناشئة التي تخدم هذا الهدف. وعندما تقدّمت المبادرة الشبابية «منزل لكل حدث» (متلي متلك) بمشروع ممول من السفارة الأسترالية إلى الاتحاد طلباً للدعم والمساعدة والشراكة في المشروع، لم يكن ممكناً إلّا تبنّي هذه المبادرة ومضمونها والتشارك معها تحقيقاً لأهداف الاتحاد، وتشجيعاً للشباب الناشئ المتمسّك بلبنان الأرض والوطن والذي لا يزال يفكر بضرورة دعم الأحداث المخالفين للقانون. بالتالي، أتت هذه المبادرة الإنسانية كبصيص أمل ونور وسط عتمة الضياع والانحراف، وكان التحدي الأكبر أن نقدّم برنامجاً تعليمياً جديداً للأحداث، ومختلفاً عن كل ما تقوم به الجمعيات الصديقة في السجون.

توجهنا معاً، كاتحاد ومبادرة، قاصدين سجن رومية المركزي وتحديداً مبنى الأحداث والمشاغل، فجميعنا سمعنا عن سجن رومية المركزي ومعاناته، ولكن من الاستحالة أن تصف أي مكان بشكل دقيق من دون أن تراه بعينيك وتختبره بحواسك. كل ما ترسمه في خيالك وتسجّله في ذاكرتك غير المرئية لا يشبه ما تراه حقيقة. والألم القابع خلف أسوار السجن وأبواب العنابر لا يوازي فسحات النور التي تتسرب إليها.

كان السجن حزيناً، فما بالك بنزلائه. كل أمر إن خلا من لحن الحياة ونضارتها هو حزين قطعاً، فلا شيء يدعو إلى الحياة في السجن، لا الألوان ولا العنابر ولا حتى الممرّات. اقترحنا على آمر سجن الأحداث تعليم الموسيقى للقاصرين كجزء من برامج إعادة التأهيل والاندماج الاجتماعي. وبتاريخ 2023/1/11، حصلنا على موافقة من المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي لإعطاء دروس في الموسيقى داخل سجن رومية، في مبنى الأحداث. فكم جميل أن يتعلم القاصر كيف يتسلق السلّم الموسيقي ويركب النوتات الموسيقية من دون أن يخرج عنها قيد أنملة كي تصدح جدران السجن بأصوات ترنّم أغاني وطنية وفولكلورية ووجدانية.

في بداية الحصة الأولى، كانت الدهشة مسيطرة والخجل هو المايسترو المحرّك للقاصرين، إلا أن الدقائق سابقت بعضها وانتهت الحصة بحماسة ومحبة ورغبة عارمة في حضور الدروس القادمة في كل أسبوع. وكانت أول تغذية راجعة حصلنا عليها فور انتهاء الحصة نقلاً عن لسان أحد القاصرين: «الموسيقى خلتني إنسى إنّي بالسجن».

في الحصة الثانية، ومن وحي التحضيرات لعيد الأم وأثناء عزف أغنية «ست الحبايب يا حبيبة..» اغرورقت عيون القاصرين وتحشرجت الحناجر، فكان الجو مشحوناً بالعاطفة والاشتياق لأمّهاتهم، كيف لا وكانت أول الألحان الفطرية الموسيقية التي اختبروها منذ تكوينهم الجنيني هي ضربات قلوب أمّهاتهم. حتى إن أحد القاصرين الموهوبين، والذي يتمتع بطبقات صوتية مميّزة، قال لمدرّس الموسيقى: «عم إكتشف حالي.. أنا شخص جديد عم يتغيّر تفكيري، ما بدي إسرق بعد اليوم، صارت الحياة أحلى مع الموسيقى، لأن عندي أمل جديد وفرصة ثانية لإقدر كمّل حياتي».

الموسيقى هي الجواب لكل الاستفسارات. فليس خفياً على أحد أنّ الاستماع إلى الموسيقى أثناء الدراسة يحرز تحسينات ملحوظة في المهارات الأكاديمية للطلاب، بسبب الترابط بين الصحة الجسدية والعقلية. حتى إنها قد تصل إلى حد الشفاء من بعض الأمراض. كما تؤثر على عملية التعلّم والتفكير والتحليل العميق والسريع وتحفيز التركيز وتحسين الذاكرة. فقد أشار بحث حديث إلى أن الصمت بين نوتتَين موسيقيتَين يحفّز خلايا الدماغ والخلايا العصبية المسؤولة عن تطوير الذاكرة الحادّة وتحسين الإبداع أيضاً، وذلك لتأثيرها الإيجابي على الجانب الأيمن من الدماغ.

وهناك نوعان من التأثير تحدثهما الموسيقى: التأثير الرئيسي الذي يرفع المعنويات ويشحن طاقة الإنسان نحو الأمور الروحية. والتأثير الثانوي الذي يحمل طاقة وقوة تؤثران في الوضع العاطفي والبدني.

اليوم، بعد مرور أشهر على تعلّم الموسيقى، أصبح القاصرون قادرين على العزف على المزمار «Flute» كما تعلّم بعضهم عزف بعض الألحان على البيانو الإلكتروني.

بعد ذلك، تقدمنا بطلب القيام بحفل موسيقي تتويجاً لإنجازات القاصرين في هذا المضمار، فوافقت المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي، وأُقيم بحضور ممثلين من السفارة الأسترالية والفعاليات الوطنية والجمعيات الصديقة. كذلك عزفت فرقة الموسيقى في الأمن الداخلي النشيد الوطني اللبناني والأسترالي. كما عزف مدرّس الموسيقى والأستاذ الجامعي محيي الدين كنيعي، وأنشد القاصرون أغانٍ عدة، منها: «أرضي عم تعاني» للكبير وديع الصافي و«نسّم علينا الهوا» للسيدة فيروز و«ست الحبايب»، و«تعلا وتتعمّر يا دار»، والقدود الحلبية، كما قدّم أحد القاصرين الموهوبين أغنية «سولو» من تأليفه.

هي مبادرة، نعم.. لكنها ستستمر. فالصمت في السجن لا بد أن يتحرّر لحناً شجيّاً وصوتاً يتغنّى بلبنان وانتمائنا إليه، فجميعنا مسؤول عن تقديم الأمل وتغيير الواقع بكل الطرائق المتاحة. وكم نحن بحاجة اليوم إلى رؤساء وزعماء وقادة يضعون القاصرين في سلّم أولوياتهم الوطنية، لأنهم هم الأساس وهم الأولوية.

* رئيسة الاتحاد لحماية الأحداث في لبنان

المرحلة الثالثة

قاووش |

الموسيقى تحرّر أحداث رومية

«الفرصة الثانية» مشروع موسيقي شارك فيه 15 حدثاً مخالفاً للقانون منذ منتصف كانون الثاني 2023، نفّذته مؤسسة «متلي متلك» بالشراكة مع الاتحاد لحماية الأحداث في لبنان وبالتعاون مع قوى الأمن الداخلي. للمشروع تأثير عميق على حياة الأحداث في السجن، إذ تبيّن أن الموسيقى، باعتبارها وسيلة تعبير وإبداع، يمكن أن تكون أداة فعّالة لإعادة التأهيل والعلاج الشخصي والاندماج الاجتماعي لديهم. بتوجيه من مدرّس موسيقي متخصّص، يجتمع الأحداث بشغف صباح يوم الجمعة من كل أسبوع للشروع في رحلة التعرف والتعلم وإتقان العزف على مختلف الآلات الموسيقية، بما في ذلك الأورغ والفلوت والإيقاع. لم يقتصر دور المدرّس الموسيقي على تعليم العزف، بل شمل السلوك وتقنيات التنفّس والتعبير الموسيقي الارتجالي. اكتسب الأحداث الثقة بأنفسهم تدريجياً، مع مرور كل أسبوع، وبدأوا بإطلاق الألحان الموسيقية التي تردَّد صداها في أنحاء السجن المركزي المكتظ في رومية، الذي يُحشر فيه أكثر من 3000 سجين بين محكوم وموقوف. حرص المعنيون بالمشروع الموسيقي على تشجيع الأحداث للتعبير عن مشاعرهم العميقة وأفكارهم من خلال الألحان التي أطلقوها. وفي اليوم العالمي للموسيقى نُظّم حفل موسيقي دُعي إليه موظفي السجن والسجناء وبعض الجمعيات العاملة في السجن لمشاهدة التقدّم الملحوظ الذي أحرزه الأحداث خلال هذه الأشهر. لم تكن هذه العروض مصدر فخر وإنجاز للأحداث فحسب، بل ساهمت في تحسين صورة السجناء والتشجيع على منحهم فرصة ثانية، كما عززت التفاهم والتعاطف بين الجمهور وربط الأحداث بالعالم الخارجي. تقدّم الموسيقى إحساساً بالهوية والهدف لأولئك الذين ينتقلون من السجن إلى العالم الخارجي. يسمح هذا المشروع للأفراد بالاستفادة من مواهبهم الفريدة وشغفهم فيها، مما يوفّر طريقاً نحو اكتشاف الذات ووسيلة لتعريف أنفسهم بما يتجاوز أخطاءهم الماضية. نتائج هذا المشروع واعدة وتؤكد ضرورة تطوير وتنفيذ خدمات وبرامج إعادة التأهيل في نظام قضاء الأحداث تشمل الموسيقى والفنون الأخرى، وإيجاد استراتيجيات لاستدامتها.

(الصور من تقرير أعدته قناة LBCI)

مدرّس الموسيقى والأستاذ الجامعي محيي الدين كنيعو

(هيثم الموسوي)

القوس

■ فريق التحرير: **عمر نشابة (المسؤول)، وفيق قانصوه، جنان الخطيب، صادق علوية، ألف باء القانون، بشرى زهوة**
■ تصميم فني وإنفوغرافيك: **رامي عليّان**

alqaous | al_qaous | alqaous22 | alqaous | 01/34 99 54
info@alqaous.com | www.alqaous.com